كيف السبيل لإحياء الشرق والإسلام

تأليف
محمد لطفي جمعة

إعداد ومراجعة
رائج لطفي جمعة

عالم الكتب

عالم الكتب

نشر * توزيع * طباعة

الإدارة :

١٦ شارع جواد حسنى - القاهرة

تليفون : ٣٩٢٤٦٣٦

فاكس : ٣٩٣٩٠٢٧

المكتبة :

٣٨ ش عبد الخالق ثروت - القاهرة

تليفون : ٣٩٢٦٤٠١

ص.ب : ٦٦ محمد فريد

الرمز البريدى : ١١٥١٨

حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الأولى

١٤٢٣ هـ - ٢٠٠٢م

رقم الايداع ٢٠٠٢/٩٧٣٨

ISBN : 977-232-300-1

مطبعة أبناء وهبه حسان

٢٤١ (أ) ش الجيش - القاهرة

☎ : ٥٩٢٥٥٤٠

مقدمـــة

الأستاذ الدكتور
إبراهيــم عــــوض
أستاذ الأدب والنقد
كلية آداب عين شمس

صدق من قال : « الذى من نصيبك يصيبك » ، ذلك أنه قد وصلنى فى قطر خطاب من الأستاذ رابح لطفى جمعه بعد العيد الصغير لعام ١٤٢٢ هـ ينبئنى فيه أنه قد فرغ من مراجعة تجارب الطبع للكتاب الذى خلفه وراءه والده المرحوم محمد لطفى جمعه بعنوان « كيف السبيل لإحياء الشرق والإسلام ؟ » ، ولم يبق إلا سحبه ، وأعلن أسفه لأنى بعيد عن مصر لا أستطيع أن أكتب له مقدمة . ثم لم تمر إلا فترة قصيرة حتى فكرت فى أن أقضي إجازة نصف العام فى القاهرة بدلاً من مجىء زوجتى وابنتى الصغيرة إلى الدوحة ، وبعد وصولى إلى القاهرة بيومين اتصلت به ، وفى أثناء المهاتفة سألته عن السيدة زوجته فقال فى حزن : «تعيش أنت !» ، فكانت صدمة لى ، إذ كانت دائما تتبعه إلى استقبالى حين كنت أزوره ، فذهبت لتعزيته ، وفى خلال الحديث فتح موضوع الكتاب مرة أخرى ، فقلت له : كان سيسعدنى أن أقدّم له ، ولكن قدّر الله ، وماشاء فعل ! فردّ على الفور وما رأيك فى أن الكتاب لم يزل عندى لم أدفع به إلى المطبعة بعد سحبه ؟

هل يسمح وقتك بكتابة المقدمة ؟ فأعلنت ترحيبى وغبطتى بذلك . وقد خفف هذا الحديث بعض الحزن الذى كان يخيّم على الجلسة. رحم الله السيدة « أم لطفى » رحمة واسعة وأنزل على قلب الصديق العزيز الكريم برداً وسلاماً .

وعنوان الكتاب كما نعرف هو « كيف السبيل لإحياء الشرق والإسلام ؟» . فأما « الشرق » فهو الشرق العربى والإسلامى . وهى تسمية اختفت الآن من حياتنا ، وأصبحنا بدلاً عن ذلك نقول: الوطن العربى ، والشرق الأوسط ، والعالم الإسلامى ، وما إلى ذلك.

والمقصود بإحياء الشرق هو العمل على أن ينهض من كبوته ويتخلص من الاستعمار والتخلف الاقتصادى والانحطاط الثقافى والضعف العسكرى والسياسى .

لكن كيف إحياء الإسلام ؟ وهل الإسلام مات أو تدهور أو تخلّف؟

إن الإسلام باق كما هو مادام كتابه الكريم باقياً على حالته التى نزل عليها من السماء . فلم يضع ولا مسّته يد العبث والتحريف كما وقع للكتب السابقة عليه ، فضلاً عن أن أهله - رغم تدهور أحوالهم وتقهقرهم إلى آخر الصفوف - مازالوا يعلنون تمسكهم به ، اللهم إلا قلة شاذة ممن انقلبوا عليه ، أو باعوا أنفسهم لأعداء أمتهم ، بل مازالت جماهير الأمة ترنو إلى أن يعود الدين إلى تنظيم حياتهم السياسية والاقتصادية والاجتماعية كرة

أخـرى . الإسـلام إذن لم يمت ، ولا يمكن أن يموت ، فـالمولى سبحانه قد تكفّل بحفظ القرآن ، وأحاديث النبى عليه السلام بين أيدينا تلهم المخلصين العاملين الهداية والفلاح .

فما المقصود إذن بإحياء الإسلام ، لا أظن إلا أن المؤلف رحمه الله ، قد قصد إحياء العمل بالإسلام ، إذ لاشك أن الإسلام قد نُحِّىَ عن بعض مجالات الحياة فى بلاد المسلمين ، ومات العمل به ، أما موته هو نفسه فهو المستحيل بعينه .

وقد كان لطفى جمعه من الكتاب المهمومين بهموم وطنهم وأمتهم ، وله كتابات فى هذا الصدد متنوعة ما بين مقالات وكتب وروايات ومذكرات وتفسير قرآنى وسيرة نبوية ... إلخ . وقد سبق أن كتبت عن هذا الجانب من تراثه الفكرى كتاباً كاملاً بعنوان « كاتب من جيل العمالقة - محمد لطفى جمعه - قراءة فى فكره الإسلامى »[1] . وكنت أعرف من المستشار رابح أن لأبيه كتاباً مخطوطاً يحاول فيه الإجابة عن السؤال الذى كان ولايزال يلحّ على ضمائر كل المصلحين المسلمين : كيف السبيل إلى إحياء المسلمين ؟ وكنت أتطلع إلى اليوم الذى يصدر فيه هذا الكتاب ويرى النور ويكون فى أيدى القراء لعله يثير حميّتهم ويشعل حماستهم ويدفعهم دفعاً إلى نبذ هذا الخمول العقلى والوجدانى والأخلاقى الذى هم فيه واللحاق بالأمم القوية .

---

(١) نشر عالم الكتب ، القاهرة ، سنة ٢٠٠٠م

وبتأليف لطفى جمعه لهذا الكتاب ينضم إلى قافلة الكتاب المصلحين الذين يحاولون أن ينفخوا فى أمة المسلمين روح العزة والإباء والأمل والتطلع إلى المستقبل فى عزيمة صادقة وطموح غلاب من أمثال رفاعة الطهطاوى وخير الدين التونسى والأفغانى ومحمد عبده وشكيب أرسلان والكواكبى والثعالبى ومحمد إقبال والمودودى وعبد الحميد باديس وغيرهم ممن جعلوا غاية حياتهم إزالة غبار الركود والخمود عن حياة المسلمين وحثهم على النهوض وكسر القيود والسدود والتخلص مما هم فيه من جمود فى كل ميادين الحضارة والحياة .

وقد كانت حياة لطفى جمعه منذ وقت مبكر جهاداً فى سبيل العلم والوطن ، وجهاداً فى سبيل الدين وأمة الإسلام أيضاً . وقد طاف فى شبابه ببعض البلدان الأوربية واشترك فى تنظيم عدد من المؤتمرات الوطنية هناك ، وكان من أتباع الحزب الوطنى وشديد القرب من الزعيم محمد فريد ، الذى خلف المرحوم مصطفى كامل فى زعامة ذلك الحزب ، وله فى ذلك مذكرات ضافية تزيح الستار عن كثير من أسرار الجهاد الوطنى فى تلك الفترة الهامة من تاريخ مصر والعالم الإسلامى [١] .

---

(١) « شاهد على العصر ، مذكرات محمد لطفى جمعه » ، الجزء الأول ، سلسلة تاريخ المصريين ، رقم ١٨٣ ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة سنة ٢٠٠١م.

كما كانت له صلات وثيقة بطائفة كبيرة من رجالات عصره من سياسيين ومفكرين ومصلحين وعلماء دين ومستشرقين وتبادل معهم كثيراً من الرسائل التى نشر ابنه المستشار رابح ما استطاع أن يضع يده عليه منها (١).

وإن الإنسان ليستغرب كيف أن هذا الرجل الذى كان يملأ الصحف والمجلات دويًا بمقالاته وبحوثه ويؤلف الكتب ويترجمها قد انزوى إلى ركن من أركان النسيان البعيدة وكأنه يوما ما كان ، ولكن لم الاستغراب ، وأمتنا للأسف سريعة النسيان ، لاتقدر الأشخاص حق قدرهم ، وكثيراً ما تمجد التافهين ، وتهمل من أفنوا حياتهم فى حبها وخدمتها ؟

هذا ، وقد أرجع المؤلف سرّ تأخر الأمم الإسلامية إلى عدة عوامل بعضها يعود إلى عيوب فيها هى نفسها ، وبعضها يعود إلى مؤامرات أعدائها ضدها . والشائع بين المسلمين اليوم أن السبب فى تخلفهم هو الاستعمار الذى أصبح مشجباً يعلقون عليه كل مصائبهم ومخازيهم . ولسنا نمارى فى أن الاستعمار هو أحد الرزايا الثقيلة التى ابتلى بها المسلمون فى العصور الحديثة . بيد أننا فى ذات الوقت نرى أن مرجع ما نحن فيه من تخلف وانحطاط أمر أبعد من ذلك ، إنه شىء فى نفوسنا نحن . ولئن

---

(١) « حوار المفكرين ، رسائل أعلام العصر إلى محمد لطفى جمعه خلال نصف قرن ، ١٩٠٤ - ١٩٥٣ » ، عالم الكتب ، سنة ٢٠٠٠م.

كان المرحوم مالك بن نبى يشخص داء الأمة الإسلامية بأنه «القابلية للاستعمار» ، فإننى أذهب إلى ماوراء ذلك ، ألا وهو الذلة والإحساس بالضآلة وعدم الطموح إلى المعالى والقنوط من التفوق والرزوح تحت وطأة العجز والتلذذ به وكأنه مجد يبعث على الفخر ويستزاد منه . وإذا ضربت هذه المشاعر فى ضمير الأمة فقل : عليها السلام !

ويوم تسترد الأمة إحساسها بعزتها وكبريائها وتتطلع إلى الذرا ولا تستنيم لشعور العجز والقنوط فعندئذ فاعلم أنها قاب قوسين أو أدنى من النهوض بل من التحليق فى فضاء الله الواسع العريض ، ومن الفوز بالبركة الإلهية وبلوغ المجد فى الدنيا والآخرة. وهذا الشعور بالعزة هو الذى غرسه الإسلام فى نفس البدوى العربى فانطلق يطير فى أجواء السماء العالية بأجنحة النسور ، يفتح البلاد ويحكم العباد ويهديهم سبل الرشاد وشتان بين ما كان العربى أوانذاك وبين ما أصبحه فى هذه الأيام النحسات!

لقد كانت إمكانات أجدادنا يوم جاء سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم صفراً أو شيئاً يقرب من الصفر ، ومع ذلك فقد حققوا المعجزات السياسية والعسكرية والثقافية والحضارية . أما الآن فإن الإمكانات التى تحت أيدينا من الموقع الجغرافى والثروات البترولية والجيوش والأسلحة التى ننفق عليها مليارات الدولارات والمدارس التى تفوق الإحصاء والمجلات والصحف

ووسائل الإعلام والوزراء والمديرين والمتخصّصين فى شتى المجالات إلخ .. إلخ هى إمكانات هائلة ، ورغم هذا فـــإننا لانكف عن التذمر والشكوى ، كذباً بطبيعة الحال ، من قلة الإمكانات ، وكأننا ننتظر أن يبعث الله من ينهض بدلاً منا ويشقى ويتعب ويحقق أسباب التقدم والمنعة ثم يضعها فى حجرنا غنيمة باردة راجياً إيانا أن نمدّ أيدينا لنستمتع بها ! إن هذا لهو التخلف بعينه والطفولة الحضارية مجسّدة ! إن العالم يجدّ من حولنا ونحن لاهون ، ويعمل بكل قواه ويعرق ونحن فى ظلال الخيبة والحماقة قاعدون ، ثم نظن بعد ذلك كله أن الدنيا سوف تدين لنا عما قريب ! كيف ؟ علم ذلك عند خائرى الإرادة التافهين الغاطّين فى الموت العميق !

ترى ما الذى نحتاجه بعد كل ما فعلته وتفعله بنا أمريكا وأوربا وإسرائيل حتى نتحرك ؟ لقد تحرك الجماد ، أما نحن فمن الواضح أننا أجمد من الجماد !

لقد كتب محمد لطفى جمعه ما كتب عن علل الأمة منذ ثلثى قرن أو يزيد ، فإذا قرأته الآن ونظرت فى حال الأمة خُيّل إليك أنه لم يمر عليه إلا أيام معدودات ، فالعلل هى هى ، والبلا يا هى هى، والشلل الذى يقيد العزائم هو هو ، والغم الذى بنفوس الغيارى من أبناء الأمة هو هو ، فلا تملك إلا أن تضرب كفا بكف عجباً من ركود الهمم وتبلد العقول والنفوس وتحجر الضمائر ، وكأنك تشاهد أمة من الأصنام الجامدة لا أمة من البشر الأحياء !

إن بعض فلاسفة التاريخ يتحدثون فى مثل هذا السياق عما

يسمونه بقانون « التحدى والاستجابة » يقصدون أن الأمم التى فيها الأمل هى الأمم التى تهبّ فى وجه التحديات منتفضة القوى إلى أن تقضى عليها قضاءً تاماً ، فأين استجابة الأمم الإسلامية للتحديات التى تنصب كالصواعق على رأسها منذ قرون ؟ . لقد صاح ذات يوم غير بعيد أحد الزعماء المسلمين السياسيين قائلاً : لقد قضينا على الاستعمار . وكان قصده أن بلاده قد غادرتها جيوش الاحتلال التى كانت رابضة فيها ، لكن ها هو ذا الاستعمار فى قلب بلاد الإسلام أشرس مما كان ، وأفجر مما كان ، وأشنع مما كان ، ولا أحد يستطيع أن يفتح فمه بكلمة اعتراض . ماذا حدث يا إلهى ؟ أو قد متنا حقا وانتهى الأمر وأصبحنا جثثاً عفنة لا يصلح لها إلا أن توارى التراب وينادى عليها أن هذه أمة قد انقرضت وبادت ؟ . ياللسكين الملتهبة التى تغوص بين أضلعنا وتنفذ فى قلوبنا ! أدركنا يا إلاهى ! .. لكن أيدرك الله قوما ودّعوا العزة والكرامة والأمل والجهاد ورضوا بأن يكونوا مع الخوالف واستمرأوا « البكش » و « الفهلوة » والدعاوى العريضة التى لا يحصّل الإنسان من ورائها أى طائل ؟

إن أمة تزرع الحسك وترجو أن تحصد منه التين والتفاح والعنب لهى أمة مغيبة الذهن فاقدة الرشد ، وإذا كانت تنتظر الرحمة من الأقدار فلن ترحمها الأقدار ، لأن الأقدار صاحية جادة لاتعرف الهزل ولا البهلوانيات .

ولقد كان لطفى جمعه على حق حين صرخ من الألم قائلاً إن

الأخلاق فى الشرق العربى فى الحضيض ، والتعامل بين الناس من أسوأ ما يكون ، حتى إن الثقة قد نزعت من القلوب ، وعدم الوفاء بالوعود حتى عند أهل التجارة وهم أجدر الخلق بالوفاء وقد أورد كلمة فى الصميم لبعضهم قال فيها: إنى لأدهش من استمرار الحياة الاقتصادية فى الشرق العربى على ما أعلم من فساد أحوال الأفراد . ومما عقب به كاتبنا على ذلك تأكيده بحق أنك لا تأخذ من أهل الشرق عامة إلا الكلام العذب والحديث الطويل والأساليب المنمقة والوعود الخلابة والخطب الرنانة ، وهم يعطونك من طرف اللسان حلاوة ويروغون منك عند الجد كما تروغ الثعالب والذئاب والثعابين والشياطين والمردة ، وأنهم للأسف لاتحركهم إلا الأطماع المادية العاجلة ولا يبالون بالكيان الأدبى .

وهذا كله صحيح وحق ، وإن كثيراً من أهل الفضل والصدق لينتهى أمرهم إلى الإصابة بالكآبة وضغط الدم واحتراق الأعصاب ومرض السكر ، وذلك مما يلاقونه من العنت فى التعامل مع أبناء وطنهم وملتهم . وإن الواحد منهم ليحس ، وهو يتحرك فى المجتمع ، أن فى رجليه أكياساً ثقالاً من الرمل فهو لا يستطيع أن يتقدم خطوة إلى الأمام إلا بطلوع الروح . بالله كيف يمكن أن يحدث تقدم لمجتمع هذه أخلاقه وأوضاعه ؟

ومما تضحك به الشعوب الإسلامية على نفسها إلقاؤها بالتبعة كلها على رؤوس حكوماتها ، تريد أن تقول إنها بريئة براءة الملائكة ، وأن المشكلة ليست فيها هى بل فى حكامها . وهذا مين

بواح ، إذ الحكام فى أية أمة إنما هم عنوانها وصورتها التى تعكسها مرآة الزمان ، فإذا كانت أمة نظيفة مستقيمة فإن الله يقيض لها حكاماً مثلها نظافة واستقامة ، وإذا كانت أمة ملتوية مراوغة ابتلاها الله بحكام من نفس الطينة . إن الأمة هى التربة التى ينبت فيها الحاكم ، وإن التربة السبخة لا تستطيع أن تعطى فاكهة جيدة حلوة ، إن هذا مناف لسنن الله فى كونه ، ولكننا قوم غافلون .

ولست بهذا أبرىء حكومات المسلمين ، فلعلها بوجه عام من أسوأ حكومات الأرض ، إلا أن هذه ليست مسئوليتها وحدها بل مسئوليتها هى والشعوب التى تحكمها . وقديماً قيل « كما تكونوا يولَّ عليكم » .

وتارة أخرى نجد أمم المسلمين تجأر بالشكوى والصراخ من كيد أمريكا وأوربا وإسرائيل لها . ولسنا نستطيع أن ننكر الظلم البشع الذى توقعه هذه الدول بنا ، ولكن أين نخوتنا ؟ وكيف تسرب من قلوبنا النفور من الظلم والحمية التى تثور على ما يلحقه بنا أعداؤنا من بغى وعدوان ؟ إننا لا نستطيع أن نقنع أعداءنا بالتزام شريعة العدل معنا ، بيد أننا نستطيع أن نكون رجالاً ونقف فى وجوههم ونلزمهم حدودهم . صحيح إن الأمر يستلزم تضحيات هائلة واستعداداً طويل النفس وصبراً مديداً ، لكن ألسنا نتحمل كل يوم من مصائب أولئك الأعداء وبغيهم علينا ما لاتعدّ معه تلك التضحيات شيئاً يذكر ؟ فأى الخطتين أجدر بالأمم

الكريمة؟

كذلك تكلم المرحوم لطفى جمعه عن علماء السوء ومنافقتهم للسلاطين الظلمة . وقد كان المنتظر من علماء المسلمين أن يكونوا رداً لأممهم يقيهم شرور السلاطين الظالمين ، لكن غالبيتهم للأسف قد تخلوا عن هذه المسئولية وانحازوا إلى المستبدين وخنعوا لهم وباركوا جرائمهم وقسوتهم على أممهم . وإذا شاموا فى بعض أفراد الأمة عزة نفس ورفضاً للهوان ، امتلأت قلوبهم بالحقد عليهم وأفتوا بأنهم .. وأنهم .. وما فتوى بعض العلماء فى أكثر من دولة إسلامية بأن العمليات الاستشهادية الرجولية النبيلة التى يقوم بها أبطال فلسطين السليبة هى عمليات انتحارية - ببعيدة ، وهو ما يعنى أن هؤلاء المعدودين زوراً وبهتانا فى عداد العلماء لايرحمون ولايتركون رحمة ربنا تنزل على الأمة !

فليرونا إذن كيف يكون الاستشهاد الصحيح فى نظرهم ، وليتقدموا الصفوف التى تحارب العدو ، وسوف تتبعهم الأمة وتصنع مثلما يصنعون . لكن أمثال هؤلاء ، للأسف والخزى والعار ، ليسوا من الجهاد فى شىء . إن دورهم هو التثبيط وقتل هذا البصيص الباقى من الأمل ، ولانامت أعين المنافقين الجبناء!

أعداؤنا المجرمون المتوحشون يدمرون البيوت ويحصدون الأرواح ويهاجموننا بطائراتهم ودباباتهم وبوارجهم ومصفحاتهم ويكسرون عظام أهلينا فى فلسطين أمامنا رأى العين على شاشات التلفاز ويبقرون بطونهم ويفقئون عيونهم ويسحلونهم سحلاً ، وهؤلاء

الثعالب المتزيون بزىّ العلماء يدعوننا إلى الاستسلام لسكاكين الجزارين مطمئنين إيانا بأنهم لن يتركونا وحدنا فى الميدان بل سيأتون ليكبروا علينا عند ذبح الأعداء لنا حتى يكون لحمنا حلالاً لأونئك الأعداء سائغاً فى حلوقهم سهل الهضم على معداتهم . أرأيتم كارثة من قبل كهذه ؟

لقد كثر المتصايحون بيننا اليوم بإدانة الإرهاب ، وكأن الإرهاب فى ذاته حرام . فلنسمع إذن قول المولى جل جلاله : وأعدّوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم وآخرين من دونهم لا تعلمونهم ، الله يعلمهم » . إنه سبحانه يوجب علينا أن نفعل كل ما من شأنه إرهاب الأعداء ، وإلا فإذا لم نعمل على إرهابهم فكيف نحمى أنفسنا ونلزمهم حدودهم ؟ أبالتربيت على أكتافهم وتقبيل رؤسهم وأقدامهم والبكاء كالأطفال والنساء بين أيديهم ؟ فليقل لنا حكماء آخر زمن ماذا نفعل ؟

على أن الإرهاب الذى تدعو إليه الآية الكريمة ليس هو العدوان على الأبرياء وترويعهم دون ذنب جنوه ، فهذا عمل محرَّم فى دين الله ، الدين ينهانا أن نعتدى على من لم يعتد علينا ، أما من يظلمنا ويتجبر علينا فلابد من ردعه ووقفه عند حدّه واتخاذ كل الوسائل التى ترهبه وتفزعه وتجعله يعمل لنا ألف حساب .

ولقد دعا الأستاذ لطفى جمعه إلى أن نبغض العنف وننبذ الإرهاب وألا نقابل الشر بمثله . فإذا كان المقصود بهذه الدعوة

أن يتحابّ المواطنون فيما بينهم وأن يكون رائدهم التسامح وكظم الغيظ فى تعاملاتهم اليومية ، فأهلاً وسهلاً بها من دعوة ، أما إذا كان المراد هو أن نلقى السلاح ونترك أعداءنا يصنعون بنا ما يشاءون ، فكلا وألف كلا . ولست أعلم أمة من الأمم حصلت على استقلالها وحقوقها بالتسامح مع أعدائها ، وها هو ذا كل التاريخ بين أيدينا ، فليدلنا من يخالفوننا على الصفحات التى تكذّب مانقول.

نادى المرحوم جمعه بالحوار بين الشرق والغرب ، ولكن بشرط أن يكون هذا الحوار قائما على المساواة والإخاء بين الطرفين . ونحن معه فى هذا ، وقد كان الرسول الكريم عليه صلوات الله وسلامه أول من نادى بقيام تفاهم بين أهل الأديان المختلفة على أساس من توحيد الله والتمسك بأخلاق العدل والإحسان . لكن هل يقبل الغرب هذا الشرط الذى شرطه جمعه ؟ هل يرضى الغرب أن يكون أساس التفاهم بيننا وبينه هو الأساس الذى أرساه رسول الله ؟ . لا أظن ذلك دهر الداهرين ، فأوربا لاتعرف إلا لغة القوة ، لأن هذه هى الفلسفة التى يدينون بها ، وعندهم أن البقاء للأصلح ، والأصلح عندهم هو الأقوى .

فما لم نمتلك فى أيدينا أسباب القوة التى تردعهم وتجعلهم يفكرون مليون مرة ومرة قبل أن يبغوا علينا فلن تكون لمثل هذا الحوار أية قيمة ، وسيكون ردهم علينا إذا غدروا بنا وحاججناهم به : « بلوه واشربوا ماءه ، فهو مفيد للصحة !» .

لقد كان هذا ديدن الغرب معنا طوال القرون ، ولايزال كلام « بوش » رئيس الولايات المتحدة الأمريكية فى أول الهجوم على أفغانستان يرنّ فى الآذان حين صرّح على مسمع من الدنيا جمعاء بأنه قد آن الأوان لقيام دولة فلسطينية ، ولم تمر إلا فترة قصيرة حتى ظهرت جلية الأمر وكشر بوش ومن حول بوش عن أنيابهم ودعوا إلى استسلام المقاومة الفلسطينية واتهموها بالإرهاب والعدوان ووضعوها فى قائمتهم السوداء وهددوا ياسر عرفات بإزاحته من الطريق وباركوا حصار الإسرائيليين له فى رام الله وسدّوا آذانهم عن استغاثاته المتكررة ودفعوا اليهود إلى هدم المنازل وتقتيل أصحابها وتشريدهم . واستغرب الحمقى منا هذا التصرف من أمريكا وكأنه شىء جديد ناسين أنها هى هى ذات المسرحية التى يمثلها الغرب تحت سمعنا وبصرنا منذ دهر طويل، فلاهم يغيرونها بمسرحية جديدة ، ولا نحن - من حماقتنا وبلاهتنا وغبائنا وخيانتنا لأنفسنا - نتعلم الدرس يوما ! لقد خدّرونا بالكلام على الدولة الفلسطينية حتى لاتثور الشعوب الإسلامية على سحقهم لأفغانستان ، فلما تم السحق استداروا إلينا والدماء تسيل من أنيابهم الدراكولية قائلين : « هل لكم من اعتراض ؟ » . ولقد صدقوا ، إذ من منا يجرؤ على أن يفتح فمه بكلمة ؟

إنهم يعتقدون أنهم من طينة أخرى غير طينة البشر وأن الدماء التى تجرى فى عروقهم دماء زرقاء على حين أن مايجرى

فى عـروقنا هو مـاء المجـارى ، فكيف بالله يُرجى من هؤلاء أن يعاملونا بشريعة المساواة والإخاء ؟

إننا لم نر قط حدأة ترمى كتاكيت ! إن الحدأة إنما تنقض على الكتاكيت وتخطفها وتطير بها فى الفضاء العالى حيث تلتهمها غذاء شهياً ، أما أن تلقى هى بالكتاكيت إلينا من حالق لكى نربيها ونأكلها نحن ، فذلك قلب لأوضاع الدنيا لايجوز إلا فى منطق البلّه والمجانين !

وإذا كان الغربيون ، وعلى رأسهم الأمريكان ، ينادون بما يسمونه « العولمة » فإنما يبتغون أن يقضوا على البقية الباقية من شخصيتنا القومية والثقافية والدينية ، فهذه العولمة عندهم هى «الأمركة» ، أى تصيير العالم كله أمريكيا ، يأكل كما تأكل أمريكا، ويلبس كما تلبس أمريكا و ويفكر ويشعر كما تفعل أمريكا ، ويمارس الزنا والشذوذ الجنسى بأنواعه كما تصنع أمريكا ، ولكن لاينتج ولا يبدع ولا يصنع ولا يتقدم كما تتقدم أمريكا ، ولا تكون له سيادة وكرامة كما لأمريكا سيادة وكرامة . ترى من يرضى بهذا إلا عبد ذليل؟

ولينظر المسلمون لأنفسهم ماذا يريدون ؟ فإذا كانوا يريدون أن يكونوا عبيداً أذلاء فليتعولموا ، ولكن فيلعرفوا أيضاً أنهم بذلك قد دقوا آخر مسمار فى نعشهم وخطّوا آخر كلمة فى شهادة وفاتهم الحضارية . أما إذا أرادوا أن يعيشوا كما يعيش السادة الكرام فليس أمامهم إلا الاستمساك المستميت بدينهم ، هذا الدين

الذى لايرى لأحد من الأجناس أو الشعوب فضلاً على غيره إلا بالتقوى والعمل الصالح ، هذا الدين الذى يوجب على معتنقيه ألا يجرمهم شنآن قوم على أن يبغوا عليهم ويأكلوا حقوقهم ، هذا الدين الذى يعلمهم أن البشر جميعا عيال الله ، وأن أقربهم إليه هو أحنّهم على عياله ، هذا الدين الذى حرر العقول والضمائر من الوثنيات وسلطات الكهان والطواغيت المتألهين ، هذا الدين الذى يؤجر فيه المجتهد حتى لو أخطأ ، مما لانجد له نظيراً فى أى دين أو فلسفة أو مذهب ، هذا الدين الذى يبث فى النفوس قيمة الشعور بالتواضع والإخلاص فى العمل ، لأن الأساس فى ذلك كله النية لا المظاهر ، هذا الدين الذى يجزى إلهه على الحسنة بعشر أضعافها إلى سبعمائة ضعف ، على حين لايعاقب على السيئة إلا بسيئة مثلها ، وقد يمحوها إذا تاب العبد وأناب ... ولو شئت لمضيت أعدّد ألوان العبقرية والعظمة والنبل التى تميز ديننا الكريم ، وهو الدين الوحيد الذى يصلح لأن يتخذ أساساً للعولمة إذ كان لابد أن تسود العالم كله ثقافة واحدة ودين واحد.

هذا بعض ما أثاره فى نفسى الكتاب الذى بين أيدينا والذى كتبه صاحبه بدم قلبه لابحبر قلمه ، إذ يشعر القارىء وهو يطالعه، أن لفحات من اللهب تهب على وجهه من صفحاته . فهل يفيق المسلمون ؟ وهل يتعظون ؟ اللهم فاشهد !

القاهرة فى ٢٠٠٢/١/٢٠م　　دكتور إبراهيم عوض

تقديم

رابح لطفى جمعه

كتب كثير من المفكرين وزعماء الإصلاح الدينى من المسلمين كتباً عديدة فى أسباب ضعف المسلمين وتدهور أحوالهم وما وصلت إليه أوضاعهم من الوهن والفرقة والخور والانقسام وتفكك الروابط وانحلال الأواصر بينهم وصيرورتهم فريسة سهلة للاستعمار الأجنبى على اختلاف أجناسه من إنجليزى وفرنسى وإيطالى وهولندى ، نذكر من هؤلاء المفكرين والزعماء الشيخ عبد الرحمن الكواكبى والشيخ جمال الدين الأفغانى والشيخ محمد عبده وإسماعيل غصبر نسكى وعبد العزيز الثعالبى وخير الدين التونسى وشكيب أرسلان وشاعر الهند المسلمة محمد إقبال وحسن الندوى وعبد الحميد باديس وعشرات غيرهم ممن ألفوا الكتب وألقوا الخطب وأنشأوا المقولات ودعوا إلى وحدة المسلمين وترابطهم وتآلفهم ونبذ أسباب الخلاف والتدابر بينهم وإيجاد وحدة سياسية معنوية تؤلف بينهم وتوحد جهودهم وتوجه أهدافهم نحو مكافحة عدوهم الأول والمشترك ألا وهو الاستعمار الأجنبى ، والعمل على نيل حرية بلادهم واستقلال أوطانهم وإقامة العدل والتمسك بالعزة والكرامة ورفع نير العبودية والظلم والجهل عن أعناقهم والنهوض بهم ورفع غشاوة التخلف عن أعينهم وتبصيرهم بما فيه نفعهم

وسيادتهم وتقدمهم ومسايرة ركب الحضارة والتقدم فى جميع الميادين والمجالات من سياسية واقتصادية وعلمية وفكرية واجتماعية حتى يتبوأوا مكانهم بين الأمم المتحضرة والشعوب المتقدمة .

ومما لاشك فيه أن السبب الذى دفع بهؤلاء المفكرين والمصلحين إلى البحث عن أسباب ضعف المسلمين والبحث عن وسائل إنهاضهم من كبوتهم وإقالتهم من عثرتهم وإحيائهم من خمودهم وإيقاظهم من غفلتهم وإنعاشهم من جمودهم راجع فى الأساس إلى أنه جاء حين من الدهر كانت فيه معظم الدول الإسلامية الشرقية ترزح تحت نير الاستعمار الأجنبى وتعانى الأمرين من بطش المستعمرين وصلفهم وممارستهم كل أساليب القهر والظلم والإذلال واستغلال الموارد والخيرات والثروات ومحاربة اللغة العربية والتعليم الصحيح وقمع حركات التحرير بين هذه الشعوب واتباع سياسة التمزيق الداخلى بتأليب الأقليات الجنسية أو العرقية أو الدينية على الأغلبية وبث عوامل الفرقة بين الدول الإسلامية بعضها وبعض وانتهاج سياسة مكيافيللية جهنمية بقصد فرض السيطرة والهيمنة وتغذية الفرقة والتنافر والتدابر بين أبناء هذه الشعوب .

ومن هنا انطلقت أصوات وكتابات هؤلاء المفكرين وزعماء

الإصلاح الدينى تدعو إلى نهضة المسلمين وإحيائهم واتحادهم فى مواجهة الاستعمار الأجنبى .

ومن هؤلاء المفكرين الذين شغلتهم قضية تأخر المسلمين وتخلفهم محمد لطفى جمعه ، فقد كانت هذه القضية عنده مسألة المسائل منذ باكورة حياته حسبما تكشف لنا عن ذلك مذكراته المعنونة «شاهد على العصر » .

فقد كتب فى يوميات أول فبراير سنة ١٩٠٩ إبّان أن كان يتلقى العلم فى فرنسا - يقول :

« أفكر بعد وصولى إلى الفندق (فى ليون) فى سياحتى فى بلاد الأندلس ومراكش والجزائر وتونس .. لابد لى من زيارة العالم الإسلامى كله لأكتب عنه كتابا ولأخطب فى أبنائه »[١].

وفى يوم ٣ فبراير من السنة ذاتها كتب يقول « شرحت لإخوانى مشروع سياحتى فى العالم الإسلامى ودعوتى أمم شمال إفريقيا للاجتماع لتأليف وحدة سياسية تربطها عدة روابط أدبية ومادية »[٢].

---

(١) شاهد على العصر ، مذكرات محمد لطفى جمعه ، ج ١ ، ص ٤٥ ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، رقم ١٨٣ من سلسلة تاريخ المصريين ، سنة ٢٠٠٠م.

(٢) المرجع السابق ، ص ١٤٦.

ويسجل فى يوميات ٢٩ مارس سنة ١٩٠٩ فراغه من كتابة مقال عن « نهضة الشرق» وإرساله إلى مجلة الشرق بباريس لنشره [١].

وفى مؤتمر الحزب الوطنى الذى انعقد فى جنيف فى سبتمبر سنة ١٩٠٩ ألقى محاضرة باللغة الفرنسية عن « نهضة الشرق ومصر » [٢].

وكتب فى يوميات ٣٠ يونيه سنة ١٩٠٩ أنه لما كان فى جنيف منذ شهرين كان يتردد يومياً على مكتبتها الجامعة وكان همه منصرفاً إلى مطالعة كل ما كتب عن الشرق ومصر خاصة [٣].

ومن هنا ومنذ تلك الفترة المبكرة من حياة لطفى جمعه نشأت عنده فكرة وضع كتاب عن «تحرير أمم الشرق » أو «نهضة الشرق» بمناسبة ما رآه من نهوض اليابان فالفرس فتركيا فيقظة الهند ، وفكر فى جمع كل ما استطاع من المعلومات والمواد ليسبكها فى قالب كتاب مفيد [٤].

---

(١) المرجع السابق ، ص ٢١٨.

(٢) عبد الرحمن الرافعى ، محمد فريد ، ص ١٣٠ ، ط ٤ ، سنة ١٩٨٤ ، دار المعارف ، القاهرة ، وشاهد على العصر ، المرجع السابق ، ص ١٦٥.

(٣) ، (٤) شاهد على العصر ، المرجع السابق ، ص ١٧٣.

وعندما قابل لطفى جمعه المؤرخ البريطانى المشهور المستر ويلفريد سكوين بلنت فى سبتمبر سنة ١٩٠٩ لدعوته لحضور مؤتمر الحزب الوطنى الذى انعقد فى جنيف فى تلك السنة ، سأله عن رأيه فى بلاد العرب ومستقبلهم ، فقال له بلنت إنه ينتظر للجزيرة العربية مستقبلاً عظيماً ولابد أن يتحد العرب لتأسيس دولة حرة مستقلة ، وأن أخلاق العرب أعظم أخلاق فى العالم ، ولهذا فهو لا يخشى عليهم ضياعاً ولا استعماراً [١].

وفى يوميات ٧ ديسمبر سنة ١٩٠٩ سجل لطفى جمعه طلبه من أستاذه إدوارد لامبير أن يتوسط له فى إلقاء محاضرة بجمعية الميسيون لابيك عن مصر والإسلام جعل همه فيها البحث فيما يوجه للإسلام من التهم ورميه بالتعصب والتأخر العلمى وتفنيد هذه التهم [٢] ، وبالفعل ألقى هذه المحاضرة يوم ٢١ ديسمبر سنة ١٩٠٩ بسراى التجارة وقدمه لامبير لجمهور الحاضرين وكان من بينهم إدوارد هريو رئيس جمعية الميسيون لابيك والذى أصبح فيمابعد رئيساً لوزراء فرنسا ، وقد نشرت جريدة البرجريه بعددها

---

(١) شاهد على العصر ، المرجع السابق ، ص ١٩١ ، وانظر أيضاً كتاب لطفى جمعه « قطرة من مداد لأعلام المتعاصرين والأنداد » ، ص ٣٦٣ - ٣٧٣، عالم الكتب، القاهرة ، سنة ١٩٩٨، وكتابه « مباحث فى التاريخ » ص ٣٣٩ ص ٣٤٦ عالم الكتب ، القاهرة ، سنة ٢٠٠١م.

(٢) شاهد على العصر ، المرجع السابق ، ص ٢١٤.

الصادر فى ٢٣ ديسمبر سنة ١٩٠٩م وصفا لهذه المحاضرة التى كان لها وقع حسن عند جمهور المستعمين وانتصار عظيم للإسلام والشرق ومصر (١).

وفى الجزء الثانى من مذكراته « شاهد على العصر » كتب لطفى جمعه يقول :

« ... وصلت إلى مدينة جنيف (سنة ١٩٠٩) ، فاتجه ذهنى إلى ثلاث ناحيات ، الأولى سقوط الغرب وانحداره وانحلال قوته فى مستقبل قريب قدرته بخمسين عاماً ، والثانية عهد إحياء العلوم فى إيطاليا ونهضة الفنون فى القرون الثالث عشر والرابع عشر والخامس عشر ، والثالثة أسباب انحطاط الشرق .

وهذه الجهات الثلاث قد تبدو متباعدة ولكنها فى الواقع كانت مرتبطة كل الارتباط فى ذهنى ، فالأولى تسعدنى إذ كنت فى مصر أنظر إلى أوربا نظرة إجلال ورعب ورهبة من أثر ما أراه أمامى من عجرفة الأوربيين ووقاحتهم وتحديهم وتعديهم حتى الروم أبناء أثينا والجزر الصغيرة والخدم منهم ، فلما رأيت منفذاً للتقليل من شأنهم فرحت وطربت واعتبرته خرقاً فى درعهم المصفحة وثقباً فى سور قلعتهم الشامخة .

---

(١) المرجع السابق ، ص ٢١٧.

والثانية ، وهى نهضة إيطاليا ، أشعرتنى بأمل نهوض الشرق فى مستقبل قريب تقليداً لنهوض بعض أممه التى نهضت فجأة وخصوصاً عند دنو القرن الرابع عشر الهجرى الذى كان مثيله الرابع عشر المسيحى قرن النهضة في أوربا .

أما المسألة الثالثة وهى سقوط الشرق ولا سيما دول الإسلام فكانت عقدة العقد عندى وغاية المقصود ولباب البحث : هل هو الإسلام أم المسلمون ؟ هل هو الجنس والأرض والبيئة أم العادات والتقاليد والأخلاق ؟

ولكننى أهملت الأولى وهى انحلال الغرب واعتدلت فى دراسة الثانية (عهد الرنيسانس أى إحياء العلوم ، وأنا الذى اخترت هذا اللفظ ترجمة لكلمة Renaissance) ، وتوغلت فى الثالثة وهى سقوط الشرق والإسلام عامة ومصر خاصة ... لقد أنفقت أحسن أعوام عمرى وأطيب أيامه فى البحث والدرس لأقف على أسباب تدهور المسلمين وهى أمامى حاضرة »[١].

لعل ما سبق أن ذكرناه آنفاً أن يبيّن لنا الجذور الأولى والإرهاصات المبكرة لانشغال فكر لطفى جمعه بالشرق والإسلام وأسباب تأخر المسلمين ووسائل إحياء أممه وشعوبه ، وأن يكون

---

(١) شاهد على العصر ، الجزء الثانى ، المجلد الثانى ، عالم الكتب ، القاهرة ، سنة ٢٠٠٢ م .

أيضاً هو البذرة الأولى والدافع الأساسى الذى دفع به سنة ١٩٣٢ إلى تأليف كتابه السياسى الحافل « حياة الشرق ، دوله وشعوبه وماضيه وحاضره » [١].

فقد تناول لطفى جمعه فى هذا الكتاب حالة العالم العربى والإسلامى فى النصف الأول من القرن العشرين وآمال الشرق فى المستقبل والاستعمار الأجنبى ونظرياته ، كما تحدث فى الكتاب أيضاً عن أحوال مصر وسوريا والعراق والحجاز وشرق الأردن والكويت وعمان ومسقط وشمر والقصيم والبحرين واليمن والحبشة وشعوب شمال إفريقيا كالجزائر وتونس والمغرب وليبيا ، كما تكلم أيضاً عن الهند والأفغان وإندونيسيا ، وذلك كله من النواحى السياسية والاجتماعية والاقتصادية والتعليمية ، فألقى الأضواء الكاشفة عن أحوال الشرق العربى والإسلامى ودوله شعوبه وحكامه وما فعله الاستعمار الأجنبى به وما انتهجه من أساليب ووضعه من مخططات واتخذه من وسائل بقصد تمزيق وحدة البلاد العربية والإسلامية واستنزاف خيراتها وثرواتها واستعباد شعوبها .

وخلص المؤلف من دراسته وجولاته الجريئة والصريحة إلى أن

---

(١) طبع مطبعة البابى الحلبى ، سنة ١٩٣٢ ، القاهرة .

الشرق والإسلام والعرب فى حاجة إلى العلم والعمل على تشكيلات ومناهج وخطط سليمة وعلمية ، وفى حاجة إلى إصلاح اجتماعى ونهضة اقتصادية كما أنه فى حاجة إلى زعماء مخلصين يقدرون الزعامة حق قدرها ويعملون بنيات سليمة ومقاصد شريفة وأهداف نبيلة دون مراعاة لمصالحهم الشخصية ومطامحهم الذاتية بل يفضلون المنفعة العامة على منافعهم ومنافع نويهم ، وأن يكونوا مع ذلك نوى شجاعة وإقدام وأهل بصيرة وتوأدة .

كما دعا لطفى جمعه فى هذا الكتاب إلى حوار الحضارات بين الشرق والغرب قبل المستشرق الفرنسى المسلم روچيه جارودى وقال فى هذا الصدد :

« إذا مدت أوربا أيديها إلينا مصافحة على قاعدة المساواة والإخاء والحب الإنسانى والعمل لخير الجميع ، حق علينا أن نمد لها أيدينا لنتعاون معها على الإصلاح وتحرير الدنيا من قيود الفاقة والظلم والجهل والعبودية ، فإن الشرق يريد الوفاق مع الغرب على أساس المساواة والعدل والإخاء ، كما يجب علينا أن نؤلف عصبة أمم شرقية للاتحاد وأوربا على الخير والمحبة ، فإن المستقبل لله وللوحدة الإنسانية فى الشرق والغرب ، وقد جاءت فى القرآن الشريف آيات مجيدة تنبىء بهذه المبادىء العامة الساميـــة

لأنها من أسس الحياة العالمية »[١].

وتجدر الإشارة هنا إلى أنه عقد مؤخراً فى مقر جامعة الدول العربية يومى ٢٦ ، ٢٧ نوفمبر سنة ٢٠٠١ م مؤتمر لبحث الأوضاع الدولية والعلاقات بين الثقافة والحضارة العربية والإسلامية والحضارات الأخرى خاصة الغربية ، وقد صدر عن المؤتمر بيان القاهرة الثقافى الذى يعدّ خطوة أولى على طريق وضع الثقافة العربية والإسلامية فى موضعها الصحيح بين الثقافات الأخرى .

وأكد البيان على أن الأصل فى العلاقات الإنسانية هو التواصل وأن معرفة الآخر وفهمه والتعامل معه هو السبيل للتقدم الإنسانى والحضارى ، كما دعا المؤتمر إلى الاهتمام بالثقافة العربية المستنيرة ورفض تشويه القيم الإسلامية والتأكيد على المساواة والعدل والتسامح والدعوة إلى الحوار بين الشرق والغرب بغرض الفهم الصحيح لقضايا الشعوب .

وهكذا نرى أن لطفى جمعه فى كتابه « حياة الشرق » قد ألم إلماماً شاملاً بأحوال الشرق العربى والإسلامى ودوله وشعوبه وماضيه وحاضره .

---

(١) حياة الشرق ، ص ٣٩٥.

أما كتاب « كيف السبيل لإحياء الشرق والإسلام ؟ » الذى نحن بصدد تقديمه للقارىء الكريم ، فهو الوجه الآخر والمقابل لكتاب « حياة الشرق » ، أعنى أن المؤلف إن كان قد بحث فى الكتاب الأخير أحوال الشرق العربى والإسلامى ، فقد بحث فى الكتاب الراهن عن أسباب تأخر الشرق والمسلمين وتقدم غيرهم من الشعوب الأوربية ،.وحاول تشخيص الداء ووصف العلاج .

لقد كان السؤال الذى طرحه لطفى جمعه على نفسه فى هذا الكتاب وحاول الجواب عليه هو : هل السبب فيما وصلت إليه أحوال المسلمين والشرق من تأخر وتقدم غيرهم من الشعوب الأوربية هو الدين الإسلامى أم أن السبب يكمن فى أصحاب هذا الدين من المسلمين ؟ هل هو الإسلام أم القوم والبيئة والعادات ؟ هل هناك صلة بين التمسك بالدين الإسلامى أو التخلى عنه وبين تقدم المسلمين أو تأخرهم ؟ وماهى صلة الدين سواء أكان الدين الإسلامى أو الدين المسيحى أو الدين اليهودى بتقدم الأمم وتأخرها؟ وهل حقيقة أن الأمم التى تمسكت بدينها وعقيدتها قد تأخرت ، وأن الأمم التى تخلت عن الدين تقدمت ؟ وماهى أسباب تأخر المسلمين والعوامل التى أدت إلى تخلفهم عن مواكبة ركب الحضارة ومسايرة تقدم الشعوب الأوروبية ؟ وهل حقيقة أن الشيخ محمد عبده قال تلك المقولة المنسوبة إليه وهى « رأيت فى

أوربا أمماً تركت دينها فتقدمت ، ورأيت فى الشرق أمماً تركت دينها فتأخرت»؟

طرح لطفى جمعه فى الكتاب هذه الأسئلة وغيرها - على ما سيجيىء بيانه - ثم أجاب عليها وأقام الأدلة على ما طرحه من أفكار وضرب الأمثلة على ذلك من دول الشرق والغرب ، وبعد أن طوف بنا طويلاً ، خلص من ذلك كله إلى أنه لا صلة للدين - أى دين - بتقدم الأمم والشعوب وأن السبب الحقيقى فى ذلك يرجع فى الأساس إلى أصحاب هذا الدين أو ذاك أنفسهم .

وبعد أن خلص المؤلف إلى هذه النتيجة ، وهى بمثابة وصف الداء وتشخيصه ، حاول طرح الحلول الملائمة وهى بمثابة الدواء ووصف العلاج .

ومما تجدر الإشارة إليه هنا أن الحلول التى طرحها المؤلف والاقتراحات التى اقترحها لإحياء الشرق والإسلام وإنهاض شعوبه هى حلول واقتراحات نبعت من منظوره هو كمفكر إسلامى ومصلح اجتماعى .

وفيما يلى نعرض لأهم المعالم البارزة والأفكار المطروحة والحلول المقترحة فى هذا الكتاب الذى لم ينشر من قبل والذى كتبه المؤلف فى ٢٥ فبراير سنة ١٩٣١ وفرغ منه فى ٣ مارس سنة ١٩٣١ حسبما هو ثابت فى المخطوط .

فقد عدد المؤلف أسباب تأخر الشرق الإسلامى وتخلف شعوبه وتقدم غيرهم من الشعوب الأوروبية ، وانتهى إلى أن أهم هذه الأسباب هى :

(١) أن التقدم والتأخر فى حياة الأمم لهما أسباب وعوامل متراكمة ترجع إلى أصول مختلفة وأنه ليس من الإنصاف فى شىء إدخال الأديان فى هذا المعترك وجعلها مقياساً للتقدم والتأخر ، مؤكداً أنه لا صلة بين تأخر المسلمين وبين الدين الإسلامى ، مفنداً خلال ذلك المقولة المنسوبة إلى الشيخ محمد عبده من أنه قال « رأيت فى أوربا أمما تركت دينها فتقدمت ورأيت فى الشرق أمما تركت دينها فتأخرت» ، مؤكداً أن الدول الأوربية لم تترك دينها ومع ذلك فهى متقدمة كفرنسا وإيطاليا وسويسرا وإنجلترا ، كما أن روسيا قبل الحرب العالمية الأولى وقبل انقلابها إلى الشاعية كانت تعتبر مركز العقيدة الأرثوذكسية .

وتساءل لطفى جمعه : هل ترك المسلمون دينهم ؟ وهل سبب تأخرهم هو ترك الدين ؟ أجاب على هذا بالنفى ، مؤكداً أن الأمم الإسلامية لم تترك دينها تركاً مطلقاً ولم تتحول عن عقيدتها وأنه ليس للدين دخل فى سقوط دول الإسلام ، وأن وراء هذا السقوط أسباباً سياسية واجتماعية

لاعـدد لهـا وهى تعـرض للمـسلمين كـمـا عـرضت لأوربا المسيحية، كما أن الإسلام ليس عنوان التأخر كما يدعى أعداؤه ، كما أن الوثنية أو المسيحية أو الإسرائيلية ليست عنوان تقدم كما يدعى أنصارها .

والخـلاصـة أنه ليس للدين دخل فى سـقـوط الدولة الإسلامية العربية كما أن العقائد كلها لا تؤثر فى حياة الأمم فتوجهها ، وانتصار الممالك وانخذالها راجعان إلى أسباب سياسية واجتماعية وقومية واقتصادية مستقلة تمام الاستقلال عن المعتقدات .

كما أكد المؤلف أن بحثه فى هذا الكتاب ليس له صبغة دينية ، وأنه إذا ذكر الدين فإنما يذكره عنصراً قوميا ولا يذكر الإسلام إلا مدنية عاش فى كنفها مدنيات أخرى كثيرة.

(٢) المفهوم الخاطىء لعقيدة القضاء والقدر عند المسلمين وضرورة تحكيم العقل فى معركة الحياة حيث إن القرآن حافل بالآيات التى تحث على العمل وتستنهض الهمم وتقوى العزائم ، وأن الدين الإسلامى هو فى الحق دين عمل لاكسل ولا دين اعتماد على القدر المجهول لنا .

(٣) وجود الطرق الصوفية وانتشارها فى الشرق .

(٤) علماء الرسوم عندنا الذين أعانوا الحكام الظالمين بفتاواهم وآرائهم على ظلم الرعية ودك معالم العدل والعلم ، فنصروا الظالمين من الفاتحين وغيرهم سواء أكانوا من الشرق أم من الغرب استجلاباً لمصلحتهم العاجلة ، ولم يقم من ضمائرهم وازع يزعهم ولا من عقيدتهم رادع يردعهم ، فشاركوا الظالم الباغى فى ظلمه وبغيه مع أن روح الإسلام تقضى على علمائه بتقويم ولاة الأمور ودعوتهم إلى الإصلاح .

(٥) ومن عناصر ضعف المسلمين وتأخرهم أيضا قفل باب الاجتهاد ومحاربة كل جديد فتسلح أعداء المدنية الإسلامية بفكرة هى أن تأخر الدين وجموده راجعان إلى تعاليمه وقواعده ، فى حين أن الإسلام نظام محكم للتشريع والمعاملات الدنيوية والحياة الاجتماعية مما لم يرد مثله أو ما يقاربه فى الأديان الأخرى ، وقد حارب العلماء الجامدون العلوم الحقة كالطبيعة والرياضة والفلك والفلسفة .

(٦) تألب أوربا على الإسلام وتعمدها محاربته ومقاومته فى كل ما يرمى به إلى النهضة فى أنحاء العالم خشية من نهضة المسلمين كما فى شمال إفريقيا وإندونيسيا ، فأوربا تعتبر الشرق بأممه وأديانه ونكاء شعوبه عدواً طبيعياً لها ، وهذا الذى جعلها تتألب علينا وتتحين الفرص متفرقة ومجتمعة

لضربنا الضربة القاضية ، وما الحروب الصليبية إلا فصلاً من فصول ذلك الكتاب الدامى ، كما بليت الدول الإسلامية بقبائل المغول التى كانت وحوشاً كاسرة فى صورة بشرية.

وتحدث المؤلف فى خلال ذلك على الاستعمار الأجنبى للدول الإسلامية كمصر وتونس والجزائر والمغرب وأندونيسيا وأفغانستان وليبيا وجزر الفلبين .

(٧) أن السبب فى تألب أوربا وهجومها على الشرق الإسلامى لم يكن لكونه شرقاً فقط ولا لكونه إسلامياً فقط ، بل أيضا لكونه ضعيفاً ، فليس على الباحث النظر فى أسباب تأخر المسلمين بل النظر أيضا فى أسباب ضعف المسلمين الذى أدى بهم إلى هذا التأخر .

(٨) تهاون المسلمين فى دينهم والتمسك به بسبب اتهام أوربا لهم بالتعصب ورغبة المسلمين أن يظهروا بمظهر البرىء من تهمة التعصب وهو نفس ما قصدت إليه أوربا .

كذلك روّج الغربيون دعوى انتشار الإسلام بالقوة مع أنه لم يستعمل القهر فى نقل الأمم من أديانها القديمة بل تركهم أحراراً وترك لهم حرية الاختيار بين الإسلام ودفع الجزية .

(٩) كذلك من أسباب ضعف المسلمين فقدانهم الحماسة الإسلامية الأولى وعدم البذل والتضحية ، فى حين أن

أسلافهم كانوا يتهافتون على الموت لإحراز الشهادة ، ولكن المسلمين لم يضحوا بأحد إلا مرغمين ولم يحاربوا إلا فى صفوف السادة المستعمرين فيما عدا الشعب التركى .

ومن أسباب ضعف المسلمين أيضا الجبن والهلع حتى فى مجال الدفاع عن أنفسهم وعن أوطانهم وعن حريتهم وعن شرفهم بعد أن كانوا أشهر الأمم فى الشجاعة واحتقار الموت.

(١٠)أن هذا العصر ليس عصر الأديان بل هو عصر القوميات وعصر المصلحة لا عصر العبادة وحدها وأن النهضة يجب أن تكون قومية ووطنية كما هى نهضة اليابان وأوربا وأمريكا، وواجب كل أمة أن تحتفظ بقوميتها وأن لا تفرط فى شىء من مقومات هذه القومية ، فإن الدعوة إلى توحيد الكلمة باسم الدين إن لم تفلح فلتكن الدعوة باسم القومية ، ومع ذلك فنحن محتاجون إلى أخلاق وإلى تربية روحانية فيجب أن يكون الدين وسيلة للتقدم لا أن يكون غاية ننتهى إليها ، فإننا نريد من تعاليم الدين ما يصون ضمائرنا ووجداننا ويحمينا من الإباحية وعبادة الجسد واتباع الأهواء والشهوات ثم نسعى بعد ذلك للمجد والقوة والتقدم ، فمادام الدين لا يناقض المصلحة القومية فهو على الرأس والعين ،

ومـادام لا يناقض العلم الحـديث فـهـو فى أعـز مكان من قلوبنا، ومـادام الدين يصلح لكل زمـان ومكان ويصلح للتطور والترقى فأنعم به وأكرم ، ومـادام الدين لا يخالف العقل فما أعظمه وأجمله.

ونحن لا نندمج فى الشعوب الأخرى ولكننا ندمج الصالح من مدنياتها فى حياتنا القومية ونصبغها بالصبغة الشرقية كما فعل اليابان .

(١١)عندنا فى الشرق أن البحث فى الإسلام ملازم للبحث فى شئون الأمم التى تدين به ، والسبب فى ذلك أنه قبل ظهور الإسلام لم تكن هناك مدنية عربية بالمعنى الصحيح ، والمدنية الشرقية التى سادت نصف الكرة الأرضية على التقريب كانت عائدة فى مجملها إلى الديانة الإسلامية التى حولت قبائل متفرقة متطاحنة إلى أمة سيدة قاهرة فاتحة منظمة ممدِّنة أدهشت العالم وجعلت الباحث فى الأمم التى دانت بالإسلام لا يستطيع إغفال الدين أو التقليل من شأنه ، لأن القرآن ليس مجموعة تعاليم خلقية أو بيان لأنواع العبادات فحسب ، ولكنه فوق هذا وذاك قانون وحضارة وقانون حرب وسلم وقانون مدنى وقانون تجارة وعقوبات وبحر زاخر بالعلوم والأفكار والمبادىء النافعة ، يجد فيه الحاكم والمحكوم

والشارع المنظم والمصلح كل أدوات البناء اللازمة لتشييد الأمم وتحصينها وحفظ كيانها ، وهذا هو الذى يلجئنا إلى الكلام عن الدين فى أثناء البحث فى أحوال المسلمين السياسية والاجتماعية .

(١٢)تناول المؤلف الحديث عن الصراحة فى الحق وخدمة الأمة وعن الدين والأخلاق وأدب العشرة والمجاملة والغض عن الهفوات والتسامح والموعظة الحسنة وذم النفاق والرياء ، وأن فى كل حديث من أحاديث النبى عليه الصلاة والسلام حثاً على الفضائل والكمالات والصدق والأمانة والحق والعفة، وتساءل عن نصيبنا من هذه البركة العظيمة وما الذى ذهب بها من نفوسنا وهى لاتزال بين أيدينا ونسمعها فى مجالس القرآن وفى المساجد والمكاتب والمدارس وعلى ألسنة الناصحين ؟. فأية دعوة إلى مكارم الأخلاق نطلب بعد الذى نراه بأعيننا ونلمسه بأيدينا من بوارنا وسقوطنا وانحطاط همتنا ؟

وخلص المؤلف من ذلك إلى أن الدول لاتقوم على أفراد ضعفاء ، فقوة الحكومات لا تغنى عن قوة الشعب والشعب لايكون قويا إلا بأخلاقه .

ويرجع لطفى جمعه الفضل للإسلام فى تمدين إفريقيا وتهذيب شعوبها ، لأن العرب فى صدر الإسلام لم يكونوا فى غزواتهم التى هجموا بها على أمم الشرق مثل القبائل البربرية التى هاجمت أوربا فى القرون الوسطى ولكنهم كانوا يفتحون ليمدنوا ويحضروا ، فكانت فتوحاتهم أعمال تعمير لا تدمير وأعمال بناء لا هدم وتعاون لاتهاون وتنوير وتدبير ومجاهدة ومساعدة فى سبيل خير الأمتين الفاتحة والمفتوحة.

(١٣)وجوب التعاون بين الأقطار العربية على تكوين وحدة ثقافية عصرية تشمل كل ثمرات المستقبل إلى جانب ثقافتنا القديمة باعتبار أن وحدة الثقافة هى الجانب المعنوى من الحياة القومية ، كما يجب أن تكون الثقافة التى ننشدها ثمرة امتزاج المدنية الموروثة بالمدنية الأوربية ولكن لها مقوماتها التى تجعلها بارزة بشخصيتها متمايزة بهويّتها ، وأن تصطبغ بصبغة حياتنا العصرية الحديثة فتكون خالصة لنا لا قديمة للأقدمين وحدهم ولا غربية للأوروبيين ، ولكن ثقافة شرقية عربية عصرية للجميع ، وإذا ما أخذنا عن أوربا شيئاً فيكون ذلك مما يلائمنا ويفى بحاجتنا ولايضير بأمانينا ولا يناقض طبائعنا وبيئتنا .

(١٤)ومن أسباب ضعف المسلمين أيضاً عدم وجود جامعة واحدة تجمع بينهم لا فى الدين ولا فى الجنسية ولا فى اللغة ، كذلك انعدام رابطة الشعور بالألم بينهم ، فإلى جانب رابطة اللغة والعادات والدين توجد رابطة الألم والشعور بالظلم الواقع على الجميع وهو من أشد الروابط .

(١٥)كذلك من أسباب تأخر المسلمين تنافس ملوك المسلمين فيما بينهم حتى صار أكبر أعداء المسلمين هم المسلمون أنفسهم ، فما من فتح فتحه الأجانب من بلاد المسلمين إلا كان نصفه أو قسم منه على أيدى أناس من المسلمين ، كما أن الحروب الداخلية عند المسلمين قد ذهبت بريح كثير من أممهم وتفككت تلك الدولة العظمى وتمكن منها أعداؤها .

(١٦) لعل نظام الحكم فى الممالك والدول الإسلامية هو الذى سبّب انحطاطها ، فنظام الشورى وهو نظام ديمقراطى تحول واضمحل بفعل الظلم والاستبداد وتواطؤ العلماء مع الأمراء واستبقاء الشعب فى الجهل والفقر ، فالإسلام فى جوهره ليس إلا قانونا وكل قانون يصلح بالملك العادل ويفسد بالملك الظالم ، ولا عبرة فى حكم الأمم بالقوانين وحدها بل العبرة أيضا بالرجال الذين يطبقونها وينفذونها ، فإن القانون العادل ينقلب وبالاً وأداة للظلم فى أيدى الحاكم الظالم ،

والقانون الردىء قد ينقلب خيراً وأداة للعدل فى أيدى الحاكم العادل .

(١٧)كذلك من أسباب تأخر المسلمين تقريب بعض الحكام للغرباء عن الوطن .

(١٨)من عناصر إحياء الشرق والإسلام والعرب حاجتنا إلى العلم والعمل والزعماء المخلصين والتمسك بالإسلام وإجراء الحوار بين أوربا والشرق .

(١٩)أن علماء المشرقيات ومحبى الشرق والمغرمين باللغة العربية والذين يرتدون عن أديانهم وينتحلون دين الإسلام ، لايفعلون ذلك حباً بنا ولا إعجاباً بديننا ولكن وراء ذلك لهم مقاصد سياسية يرمون بها إلى القضاء على حريتنا وقتل أرواحنا وإدخال اليأس على أبنائنا .

فأنت ترى من هذا أن أعمال المستعمرين فى الشرق واسعة النطاق وأنها تناولت جميع أسباب الحياة ولم يغفلوا عن صغيرة ولا كبيرة ، وقد وجدوا معينا من أبناء الشرق أنفسهم سواء أكانوا مدركين أم غير مدركين ، فهم يعينون من حيث لا يشعرون على خراب بلادهم بأيديهم كما قضت أجيال لهم من قبل على مجد أجدادهم وآبائهم .

هذا هو الشرق الذى كان مجمع الفضائل ومظهر الكمال

والجمال ، قد انحط على أيدى أعدائه وأبنائه إلى هذا المستوى وأصابته تلك الطعنات التى أدنت أجل شعوبه ، وتفرقت كلمة أممه حتى أصبحت كل أمة منها أفراداً لا تربطهم رابطة قلبية ولا روحية ، وربما كان الشرقى فى نظر ابن جنسه وابن وطنه أو ابن دينه أعدى له وأخطر عليه من الأجنبى .

غير أن هذا الشرق هو الآن يتحرك وقد بدأ أبناؤه بإدراك تلك الحقائق أو بعضها وقاموا يفكرون فى تشخيص أدوائه ووسائل علاجه .

هذه هى أهم الملامح وأبرز المعالم التى تدور حولها محاور الكتاب ، ولعل القارىء يلمس فى ذلك نهجاً جديدا فى معالجة قضية تأخر المسلمين وأسباب ذلك والبحث عن سبيل إحيائهم وإنهاضهم ، وهو كما نرى نهج يختلف تماماً عن النهج الذى اتبعه زعماء الإصلاح الدينى فى كتاباتهم عن تلك القضية سواء فى ذلك المتقدمون منهم والمتأخرون ، والنتيجة أو المحصلة النهائية التى نخرج بها بعد قراءة هذا الكتاب هى أنه ليس للأديان على اختلافها ومنها الدين الإسلامى بطبيعة الحال - دخل فى تقدم الأمم والشعوب أو تأخرها ، وأن التقدم والتأخر فى حياة الأمم لهما أسباب

وعوامل أخرى ترجع فى الأساس إلى أصحاب هذه الأديان أنفسهم وإلى أسباب أخرى سياسية واجتماعية وقومية واقتصادية وأخلاقية مستقلة تمام الاستقلال عن المعتقدات.

ومن المؤسف حقاً أن هذه الأسباب وتلك العوامل لازالت كما كانت فى السابق - من أسباب ضعف المسلمين وتأخرهم ، فما أشبه اليوم بالبارحة !

وبالتالى لابد للمسلمين من أن يعملوا على تغيير هذه الأسباب بما يؤدى إلى قوتهم وتوحدهم وتقدمهم ومواكبة ركب الحضارة والتمدن والانفتاح على العالم المتحضر متسلحين فى ذلك ومع ذلك بدينهم متمسكين بعقيدتهم ، وصدق الله العظيم إذ يقول فى محكم كتابه « إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ».

والله الموفق وهو الهادى إلى سواء السبيل .

العجمى هانوئيل رابح لطفى جمعه

٢٠٠١/١٠/٣٠م

بسم الله الرحمن الرحيم

قال تعالى :

« كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله »

آل عمران ، آية ١١٥

« ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون »

آل عمران ، آية ١١٤

« وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان واتقوا الله إن الله شديد العقاب »

المائدة ، آية ٢

« يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا »

الحجرات آية ١٣

« ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ولايزالون مختلفين إلا من رحم ربك ولذلك خلقهم وتمت كلمة ربك »

هود ، آية ١١٩

« وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم وآخرين من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم وماتنفقوا من شيء فى سبيل الله يوف إليكم وأنتم لاتظلمون »

الأنفال آية ٦٠

« إن الله لايغير مابقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم»

الرعد آية ١١

وقال صلى الله عليه وسلم :

«المؤمن القوى خير من المؤمن الضعيف وفى كل خير»

وقال :

« يوشك الأمم أن تداعى عليكم كما تداعى الأكلة إلى قصعتها، فقال قائل : ومن قلة نحن يومئذ ؟ قال : بل

أنتم كثير ولكنكم غثاء كغثاء السيل ولينزعن الله من صدور عدوكم المهابة منكم وليقذفن الله فى قلوبكم الوهن. فقال قائل : يارسول الله وما الوَهَن ؟ قال : حب الدنيا وكراهية الموت » .

وقال عمرو بن العاص :

إن فيهم لخلالاً أربعاً : إنهم لأحلم الناس عند فتنة وأسرعهم إفاقة بعد مصيبة وأوشكهم كرة بعد فرّة وخيرهم لمسكين ويتيم وضعيف وخامسة حسنة جميلة وأمنعهم من ظلم الملوك .

مقدمة المؤلف

مصر وتحديات القرن الحادى والعشرين [*]

مصر والشرق والعالم فى أزمة ، والقرن الحادى والعشرون سوف يمحض عن حوادث عظيمة ، يشعر كل إنسان بقدومها ، وهى بلا ريب حوادث ذات خطورة لم يسبق لها مثيل ، كأن العالم كائن حى يحس بالقلق العام ويكاد يلمسه ، ولعل مصر أشد بلاد العالم حرجاً وضيقاً وشعوراً بالألم .

وأنّى تلفت الإنسان رأى أجواء ملبدة ومسائل معقدة وشئوناً مضطربة ، ولمح روح التذمر منتشراً فى كل مكان ، ولو أن مخلوقاً غريباً عن الأرض ، حل بها وطاف بأرجائها ، إذن لبصر بصورة من أفظع ما تقع عليه العين أو يمرّ بمرآة الخيال ! ، فيبدو للناظر بناء العالم المتحضر وهو يكاد ينهار ويتهدم من أساسه لأن الأساس واه ركيك ، وأمست المبانى التى شيدت عليه وليس لها من قرار ، وكأن العالم بدوله وشعوبه كائن ضخم اعترت الأمراض كل عضو من

---

(١) مخطوط كتبه المؤلف فى ٣ مارس سنة ١٩٣١ وقد رأينا جعله تقديماً للكتاب لما انطوى عليه من نظرات مستقبلية نحو القرن الحادى والعشرين (ر.ل.ج).

أعضائه وتملكت الأوجاع كل جزء من بدنه ، فوقف أطباؤه حيارى لا يدرون ما يفعلون ، فلا الجراح بقادر على البتر لأنه لايجدى ، ولا علاج الباطن بشاف من تلك الأدواء التى شاعت فى سائر الكيان ، وأهل المريض ينوحون ويندبون ويلمون شعثاً لا يلمّ ويضمّدون جراحاً لا تلتئم. وهؤلاء وأولئك يلوكون ألفاظاً من شأنها تخدير الأعصاب وتسكين الألم ، ولكنها لا تسمن ولا تغنى ولا تبرىء من علة . فما مصير هذا العليل ؟

كل هذا والحركة دائمة والتقدم الموهوم مستمر والمدنية تسير فى القرن العشرين إلى الأمام بخطوات سريعة وسوف تسير فى القرن الحادى والعشرين بخطوات أسرع .

إنها خديعة مهولة منكرة ، فلسنا نعلم إن كنا فى عصر حضارة ورخاء وعلم ونور وسلام وأمن وثراء أم فى عصر همجية وشدائد وجهل وحرب وخوف وفقر وشقوة !! اجتمعت النقائض فى كل مكان واشتمل العصر الواحد على صنوف من الظلم والهوان والبؤس والبلاء ، تراها بعينك وتلمسها بيدك ثم تسمع خليطاً من الأصوات واللغات ينادى أصحابها : « الإنسانية تسير فى سبيل السعادة المطلقة وتقطع فى القرن الحالى المرحلة الأخيرة فى الطريق الممهدة للعصر الذهبى » ، والحقيقة أن الإنسانية تسلك سبيل الشقاء الأبدى والنكد الأزلى فيسأل المرء نفسه وحق له أن يسأل :

أين مصر من هذا الموكب الحزين الذى يحفّ به سوء الطالع وسوء الحظ من كل جانب ؟

أين العقل وحكم العقل وتصرفه ؟ أين الضمير وحكم الضمير وتصرفه ؟ أين العلم ودولة العلم وسلطانه ؟ أين المدنية ونورها وقوتها ؟ أين الأديان المنزلة ووحيها وكتبها وهدايتها ؟ أين المعتقدات التى صحبت الإنسانية منذ طفولتها وقبضت على زمامها قبض الوصى الحازم على خناق القاصر الضعيف ليحفظ تراثه وينبته نباتاً حسناً ؟ أين الشرائع الإلهية التى جاءت لإنقاذ البشر من حمأة الجهل والوحشية وهدايتهم إلى سواء السبيل ؟ أين القوانين الوضعية التى من دأبها تنظيم حياة المجتمع وتسييره فى الخطة المثلى ؟ أين ثمرات الثورات الكبرى التى قامت فى أنحاء العالم لتغيير أحواله وتبديلها ومكافحة الاستبداد والمظالم بأبطالها وزعمائها ومبادئها ووراءها جيوش جرارة من الضحايا وأنهر فياضة بالدماء التى أهرقت فى سبيل نصرة ما كان يعتقده القائمون بها حقاً ؟ أين مواقف الأبطال فى وجوه أهل الباطل ؟ وأين آثار تلك الثورات التى خلدها أربابها بأسطر من نار ودم فى سجلات الدهور ؟ أين مبادؤها التى أيدّوها تارة بالمشاعل والمشانق والمقاصل ، وطوراً بالكتب والخطب من أعلا المجامع والمنابر فى جميع ناحيات العالم ؟ أين الحروب العظمى التى اشتعلت نيرانها منذ بداية التاريخ إلى أوائل هذا القرن العشرين فى سبيل الحريات والعقائد

والمبادىء وقد خلفت بعدها الدمار والخراب بعد أن حصدت نفوس المدافعين عن كل فكرة وهمية بمئات الألوف بل بالملايين ؟

أكان كل ذلك عبثاً ولهواً ؟ أم أن الحياة فى الحقيقة سلسلة حلقاتها تلك المجازر ، وأن السلام والأمن والسعادة والعصر الذهبى والحرية والمساواة ليست سوى أحلام يراها النائم فى رقدته فيتخيلها حقيقة حتى إذا تيقظ أدرك أنها رؤيا وأضغاث أحلام وخيال ووهم كأنها السراب الذى يحسبه الظمآن ماء حتى إذا بلغه ذاب أمله وتحقق فشله وآب بالخيبة .

أين إذن ذلك الشىء الذى سمّى « الخير » ولم يتلاشى فى هذا المجتمع أو يتوارى ويترك المجال للشر ؟ وإن كانت هاتان القوتان تتبادلان الظهور والتجلى على الخلق فى فترات متعاقبة فى العالم ، فمتى كانت سيادة الخير وفى أية بقعة من بقاع الأرض ؟

ومتى بدأت دولة الشر وكيف عمت أنحاء العالم ؟ وهل يكون لها زوال ؟ وهل تعود قوة الخير لحكم العالم والإنسانية من جديد ؟ أم أن الخير لايجد مجالاً لسيطرته فى عالمنا الأرضى فتخلى عن عرشه لسلطان الشر إلى الأبد ؟ فما قيمة قولهم : « دولة الباطل ساعة ودولة الحق إلى قيام الساعة » ، أكلمه مسجوعة جوفاء لا معنى لها ؟ أين دولة الحق ومتى سادت وكيف تسود ؟ ومن هم رجالها ومن أنصارها ، ومن ذا الذى ينود عنها ، أما دولة الباطل فماثلة أمامنا فى كل زمان

ومكان وهى الدولة القائمة والسلطة السائدة الحاكمة فى العالم من أقصاه إلى أقصاه وعلى مر الأجيال والعصور .

جاءت الحرب العظمى (١٩١٤ - ١٩١٨) فانفضح سر أوربا وانهتك حجابها وبان من أمرها ما كان مستوراً عن العيان ، فتطاحنت وتحاربت وتهالكت وتقاتلت فى سبيل الاستعمار والامتلاك وسد المطامع التى لاحد لها ، وقالوا إنها حرب فناء لا حرب غلبة وقتية، وتوعد إمبراطور الألمان خصومه بكلمته الشهيرة «ويل للمغلوب!».

وكان من دهاء ساستها أن نصبوا حبائلهم إلى أن جروا رجل أمريكا على يد رئيس جمهورى فقهه أكبر من عقله ونظرياته أكثر من تجاربه ، فخدع أقوام وغلبوا على أمرهم ، وفاز أقوام بحيلتهم وبما كانوا يمكرون ، وذهب الرئيس الجمهورى ضحية أرائه الفلسفية ولم يكن فى حياته أرضى أحداً .

وجاءت تلك الحرب الضروس بالبدع والفتن فتكشفت المدنية عن حقيقتها ، وتجسمت مطامع الأفراد وراء مطامع الأمم .

وانجلت تلك المواقع عن أمور ثلاثة لم يكن يحلم بها أحد من أبناء الجيل الماضى ، **أولها انقلاب نظم الحكم والاجتماع فى كثير من ممالك العالم** ، فظهرت الإشاعية فى روسيا والجمهورية اللادينية فى تركيا وسقطت عروش معظم ملوك أوربا وقياصرتها حتى

لم يبق منهم بعد سقوط ملك أسبانيا سنة ١٩٣١ إلا من يعدون على بعض أصابع اليد الواحدة .

والأمر الثانى تأسيس عصبة الأمم التى اتخذت جنيف مقراً وقد ظهر عجزها من اللحظة الأولى لأنها محرومة بطبيعة تكوينها من القوة التنفيذية .

والأمرالثالث هو فكرة الانتداب التى تمخضت عنها مخيلة المستعمرين مجتمعين ، فحلت محل خطة الاستعمار القديم ، بل خلقت له أعذاراً ومبررات وألبسته ثوباً يجعله مشروعاً أو فى حكم المشروع .

وقد أظهرت الحرب كيف يكون الاستهتار بالحياة وكيف تتسابق المواهب فى اختراع وسائل الهلاك ، وانتهكت حرمة الأخلاق وديست الحرمات سواء أكان ذلك فى ميادين الحرب أم فى المدن القريبة من مواطن الهلاك ، وانتشر الفساد وعم فى حواضر الحضارة وعواصم المدنية وهكذا اضمحلت البقية الباقية من الأخلاق وتضاءلت المكارم والمروءات ، وانتقلت الثروة بسرعة تورث الدوار إلى أيدى فئة من الوسطاء والمرابين وتجار الموت الذين يبيعون أدوات الهلاك ويبذلون بعض ثروتهم فى سبيل استمرار الحرب لتدرّ عليهم الخيرات ، وأصبحت الكثرة الغالبة من الأمم فقيرة لاتجد الكفاف وتتلمس القوت الضرورى فلا توفق إليه ، فاختل ميزان الحياة الاجتماعية وتراخت

حبال الآمال وظن الناس أن الدنيا قد دنت نهايتها وأن القيامة التى ورد ذكرها فى الكتب المقدسة قد أوشكت أن تقوم ، وفى الحق أنها قامت ولكنها قيامة بعض النظم القديمة ودق ناقوس المدنية المادية القائمة على عبادة المال واستبداد القوى بالضعيف وانبثقت بعض أشعة من فجر الحياة الجديدة ، ولكن طغاة العهد القديم الذين التفّت خراطيم سمومهم حول أعناق العالم كالأخطبوط لايزالون متشبثين ليرووا ظمأهم الذى لاتطفأ له نار بالبقية الباقية من دماء الأمم .

وهذا وحده سبب القلق العمومى الذى يسود العالم فى الشرق والغرب ، عراك بين المستقبل الذى يريد أن يولد فى القرن الحادى والعشرين وشياطين الماضى الذين يريدون أن يؤجلوا هذا الميلاد السعيد!

محمد لطفى جمعه

كيف السبيل لإحياء الشرق والإسلام ؟

عقيدة القضاء والقدر والمفهوم الخاطىء لها وضرورة تحكيم العقل:

لقد فقدت الإنسانية عقيدتها فى الأديان وفى المثل العليا وفى الفضائل وفى الآداب الموروثة والمكتسبة ، وأصبحت تنتظر الخلاص من طرق غير طريق تلك المصادر العليا التى عمل الإنسان بشره وجهله وقسوته على فسادها وكسادها ، وأصبحت الجماعات التى كانت من أشد الناس تديناً ، تخبط كفاً على كف وتنادى بالويل والخيبة !

فإن تلك الأديان السماوية السامية التى تسلّطت على ضمائر الملايين وهدتهم إلى سبيل الرشاد ، تركت الملايين من ذوى الجمود والقلوب المتحجرة لا يشعرون بها ولا يخضعون لنفوذها ويعرضون عن تعليمها ، وقد يتخذونها عند الحاجة وسيلة للتغلب على الضعفاء والاستيلاء على ثروتهم وتسخيرهم فى أغراضهم بحجة ولاية الأمر أو وجوب الطاعة العمياء أو اختلاف الدرجات .

وعندك فريق من القوم يتمسكون بالقضاء والقدر ويعتبرون كل ما يجيىء به الدهر أمراً محتماً واجب الاحترام والتقديس ينبغى الانحناء أمامه فى خشوع تام بلا مناقشة ولا فحص ولا تمحيص . وقد يكون مصاب أحدهم بنتيجة فعله ، كما يكون بعده عن الخير الذى

يرجوه ثمرة مرّة من ثمار مسلكه السيىء ، ولكنهم هكذا يفكرون وهكذا يدركون الأمور على الوجه الخاطىء !

بيد أنه لاتوجد شريعة تحتم استسلام المرء للمجهول استسلاماً يقضى على حياته فى الحاضر والمستقبل ويقطع بينه وبين السعادة .

ومن هؤلاء فريق يجادلونهم يريدون إقناعهم بتحكيم العقل فى معركة الحياة ، لأن العقل لم يعط الإنسان عبثاً وإنما كانت هبة العقل ليسلك به سبل السعادة .

فى حين أن الأمم القوية المحاربة المتغلبة لاتقيم للأقدار وزناً وتعتقد أفراداً وجماعات أن حظ كل إنسان فى يده ، ومقدرات الشعوب من بنات أفكارها وعلوّ همتها وحذقها فى الكفاح والنضال . فوفقت تلك الشعوب التى لم تخضع لما وراء الطبيعة ولم تستنم للخفاء والغموض ، وسلكت سبل الترقى الواضحة وتمكنت من اغتيال الأمم المؤبة المرعوبة الخانعة التى تركت قيادها وتخلّت عن زمامها لأنصار القوى الخفية التى لاترى بالعين ولا وجود لها إلا فى مخيلاتهم .

وما بدعة القضاء والقدر حسبما تفهمه بعض الأمم الشرقية الآن إلا من اختراع بعض الحكام الظالمين ، يعاونهم علماء الرسوم وعباد الدنيا والدرهم بالفتاوى الحمقاء الماكرة التى بيعت بمال بخس دفعه أهل الاستبداد ثمناً لذممهم

وضمائرهم لتبقى تلك الأمم فى ظلام الجهل والأسر إلى الأبد! ففقيرهم يعتقد أن فقره قضاء وقدر ومريضهم يعتقد أن مرضه قضاء وقدر وجاهلهم يعتقد أن جهله قضاء وقدر ومظلومهم يعتقد أن ظلمه قضاء وقدر ، وكل فعل من أفعال الشر والجرائم والفسوق والدنايا إنما بقضاء وقدر ، وكل قضاء وقدر لاتجوز مناقشته ولا يصح البحث فيه ، بل يجب تقبّله على علاته تقبلاً أعمى والرضا به رضاء أعمى ، وأقصى مايجوز التفكير فيه الدعاء باللطف فى القضاء!

فبينما تبنى الأمم الغلاّبة على أساس من الصخر وترتفع بمبانيها حتى تناطح السحاب ، وبينما تراها تجوب أجواز السماء وتخترق السحب وتغوص فى أعماق البحار والمحيطات ، ترى الأمم الأخرى على الشواطىء تقدم رجلاً وتؤخر أخرى ، وتقبل تارة وتدبر طوراً، وتستكشف ما وراء الأفق بيد مرتجفة تضعها على جبين مبلل بعرق الوجل وخيبة الأمل ! وتتسمع أصوات البشير والنذير بآذان مرهفة ولكن بها طنين الحمى .

انقلاب الآية :

وقد انقلبت الآية ، فتلك الأمم التى كانت فى أصولها قبائل رحالة متوحشة ديدنها السلب والنهب والقتل فى أحراش الشمال وأدغاله، ثم

انحدرت بدافع الجوع والعطش والميل إلى الخطف حتى إذا ما لقيت أرضاً خصبة وأودية ذات زرع ، استوطنتها ثم تأصلت وتمدنت ، وبعد أن كانت تعبد الأحجار والأشجار والضفادع والثعابين ، انتحلت بعض الأديان المنزلة واتخذت وصف حماية المدنية والإنسانية ثم ادعت لنفسها السؤدد والشرف والسلطان على سائر بنى الإنسان فى كل مكان من الأرض ، ولم ينج من دعواها إلا سكان السماء ومن يدرى !

نقول لقد انقلبت الآية وصارت الأمم التى كانت أجدر بالسيادة من سواها ، ولو فى أوطانها التى كانت من قبل عزيزة الجانب ، مهيضة الجناح كسيرة القلب دامية الجراح ، فأدركت بعد فوات الفرصة حقيقة الأمر ، وتجلى ذلك الإدراك فى أفراد قلائل نصبوا أنفسهم لتنويرها وإخراجها من مأزقها والنجاة بها من مفاوز الحاضر الضيقة المظلمة ، ولربما كانو هم أوائل الضحايا التى تسحقها معاول الفتنة وتبطش بها قوة الشر التى رسمت خطة القضاء على تلك الأمم والفتك بها .

هذه مصر إحدى ممالك الشرق العربى الإسلامى ، ولعلها أرقى بلاد الشرق الأدنى وقبلة الناظرين إليه ، الآسفين على مجده القديم والمؤملين فى نهضته المتطلعين لحياته المستقبلة ، هذه مصر قد تراها وتعيش فيها فيسرك مظهرها وتفتنك أحاديث أهلها الخلّابة وتدهشك زينتهم البراقة ، ولكنك إن حاولت إدراك حقيقتها والوقوف

على كنه أمورها ، رأيت بل لمست أسباب الفناء تدب فى مفاصلها وأعراض الفساد تجرى فى عروقها !

المشاكل التى تواجه المصلح الشرقى ، تأخر المسلمين (صلة الدين بتقدم الأمم أو تأخرها ومقولة الشيخ محمد عبده) :

من المشاكل التى تواجه المصلح الشرق مشكلة تأخر المسلمين فى أنحاء العالم وهى التى حركت رجالاً عظماء للنهوض بالإسلام منذ نيف وخمسين عاماً أمثال جمال الدين الأفغانى وعبد الرحمن الكواكبى وإسماعيل غصبرنسكى ومحمد عبده ومحمد على الهندى ، فقال فريق من أهل أوربا : « إن الإسلام لا يصلح للمدنية الحديثة وهذا سبب تأخر أممه » ، وقال آخرون : الإسلام لا غبار عليه وإن الشعوب التى تدين به وتركت مبادىء هى التى تأخرت ، وعزيت فى هذا المقام جملة إلى المرحوم الشيخ محمد عبده نصها : « **رأيت فى أوربا أمما تركت دينها فتقدمت ، ورأيت فى الشرق أمما تركت دينها فتأخرت** » ، ولا أستطيع الجزم بصحة نسبة هذا القول إلى الشيخ محمد عبده لأنه يكاد يخالف الحقيقة التاريخية ، وربما نسبه إليه بعض الغيورين على الدين مما أرادوا أن يحثوا الأمم الإسلامية على التمسك بدينها بطريقة المجاز والتلميح .

بدأ الشيخ محمد عبده أسفاره إلى أوربا بعد الثورة العرابية أى حوالى سنة ١٨٨٥ أو ١٨٨٦ ، فالتقى بالسيد جمال الدين الأفغانى فى باريس وهو أستاذه فى مصر ، فأسسا العروة الوثقى وامتدت أسفارهما إلى لندن وروميه ، وبعد عودته من منفاه تعود السفر إلى أوربا فى كل عام ، فزار سويسرا فى العشرة الأخيرة من القرن التاسع عشر ، وزار البابا فى روميه سنة ١٩٠٢ أو سنة ١٩٠٣ ، وكانت رحلته إلى تونس والجزائر آخر أسفاره الخارجية .

وكل سائح فى أوربا لذلك العهد لم يكن يرى أن الأوربيين تركوا دينهم ولا يستطيع تعليل تقدمها بالإلحاد . كانت فرنسا إذ ذاك كبرى الدول الكاثوليكية ومعقلاً من معاقل المسيحية ، ومن مدنها مدينة ليون مركز البعثات الدينية التى ترسل إلى أنحاء العالم ، وباريس ذاتها تشمل مئات الكنائس الكبرى التى لا تخلو ساعة من ساعات النهار من المصلين والمصليات للاعتراف وغيره . وشعائر الدين قائمة فى كل ظروف حياة الرجل منذ مولده وتعميده وتزويجه وإعطائه الغفران على فراش الموت ولا يخلص من الاتصال بالقساوسة وهم الذين أسسوا المدارس فى أنحاء فرنسا ، وكان التعليم فى أيديهم ومن أشهر جمعياتهم الدينية « جمعية اليسوعيين » ، وكان لهم أصبع فى شئون الدولة والشعب كافة ، فلم يكن فى فرنسا أى مظهر يدل على أن الفرنسيين تركوا دينهم أو تخلوا عنه طرفة عين .

أما فى إيطاليا فسلطان الدين أعظم لأن إيطاليا حصن الكثلكة الحصين وعاصمتها رومة مقر البابا ، وبها قصر الفاتيكان مقر عرشه المتين وبجواره كنيسة القديس بطرس وهى عظمى كنائس العالم المسيحى .

ومن ذا الذى لم يكن يرى نفوذ الدين المسيحى على أهل إيطاليا فى المدن والقرى والشوارع والمدارس والبيوت حيث تضاء الشموع والمصابيح وتحرق البخور ليل نهار أمام تماثيل السيدة العذراء والسيد المسيح وكافة القديسين ؟ ، وكنت أزور كنيسة القديس بطرس فى صيف ١٩٠٦ فلم أجدها مع اتساعها العظيم تخلو ساعة واحدة من الصباح إلى المساء من جماعات كثيرة ينسابون فى ساحاتها وزواياها يصلّبون على صدورهم ويركعون ويصلون ويتبركون بالماء المقدس ويدنون من الهيكل حيث يحرق البخور ويقدم القربان وتؤدى النذور ، وقد بلغ من نفوذ المسيحية فى أوربا أن كان البابا نفسه ملكاً وإمبراطوراً لتحقيق فكرة الإمامة والخلافة فى الإسلام لأن البابا يعتبر نفسه خليفة القديس بطرس الرسول الذى نشر المسيحية فى أنحاء أوربا بخطبه ورسالته لأهل رومية كما فعل ذلك زميله وأخوه فى الدين والإيمان بولس الرسول وهما أشهر حواريىّ المسيح أو صحابته .

وكذلك فى سويسرا التى زارها شيخنا الجليل محمد عبده - معقل البروتستان ، ففيها نشأ كالڤن الشديد الذى حكم مقاطعة جنيف

بيد من حديد وكان حاكما دنيوياً كما كان زعيما دينياً ، وكان يصدر أحكام السجن والإعدام على خصومه فى الدين والسياسة ، ولازالت چنيف حتى الآن تتبع خطته وتسير على نهجه فى تمسكها بعقيدته ، وأهل سويسرا على العموم متمسكون بدينهم فى شكله الجديد الذى اختاره كالڤن مستمداً من تعاليم مارتن لوثر وزانجويل .

وكذلك كانت إنجلترا متدينة وفى عاصمتها كاتدرائية القديس بولس التى يغشاها ملوك إنجلترا وعظماؤها حتى هذه الساعة ، وفيها تقام أعظم الحفلات الدينية ، ويوم الأحد مقدس فى بريطانيا لا يلمس فيه الإنجليز عملاً حتى إن الغرباء يجوعون إذا لم يعدّوا طعامهم وشرابهم فى صباح السبت أو مسائه ، ولا أزال أذكر الوحشة التى كانت تعترى نفسى فى أيام الآحاد فى بلاد الإنجليز ، فكان كل باب مغلقاً ويسير الناس فى الطرق فى ملابس قاتمة صامتين كعادتهم ، ومن حين إلى آخر تصل إلى سمعى أصوات الأغانى الدينية وأنغام الأرغن فى تمجيد الرب ، كأن العاصمة الإنجليزية قد انقلبت معبداً كبيراً يبدو على أهلها سيما الورع والخشوع .

فكيف إذن يرى السائح أن هذا الشعب قد ترك دينه أو تخلى عن معتقداته ؟

وكانت روسيا قبل الحرب وقبل انقلابها الأخير مركز العقيدة الأرثوذكسية ، وكان للقسس - ويسمون أحدهم پوپ - والبطاركة

أعظم أثر فى الدولة عند الشعب ، وكان القيصر نفسه يسمى الآب الصغير رمزاً إلى أن يسوع المسيح هو الأب الكبير . والذى قاد الفتنة الأولى سنة ١٩٠٥ هو القسيس چاپون ، والذى قاد الدولة والأسرة القيصرية إلى الخراب هو القسيس راسپوتين ، وفى جميع أنحاء روسيا جمعيات وهيئات دينية تشبه غلاة المتصوفين فى أنواع عباداتهم، ولبعضها أمور غريبة تعد فى حدود الأسرار التى لا تذاع ولا تنشر أخبارها إلا اقتناصاً .

وعند تتويج أحد ملوك هذه الدول يتقدم المطران أو البطرك نفسه ليتوج الملك بعد أن يمسحه بالزيت المقدس كما حدث للملك إدوار السابع (١٩٠٢) والملك چورچ الخامس (١٩١١) [١] وغيرهم من الملوك والقياصرة .

فأين إذن تلك الدول الأوربية التى تركت دينها ؟

لقد قام حقيقة فى أوربا بعض الفلاسفة الملحدين الذين حاربوا العقائد الدينية فى كتبهم وأسسوا فلسفتهم الوضعية على العلوم والحقائق التاريخية أمثال إرنست رينان وأوجست كومت وداروين وهكسلى ، ولكن هؤلاء كانوا قطرة فى محيط بالنسبة لمجموع المتدينين،

---

(١) انظر مقال المؤلف عن حفلة تتويج الملك إدوارد الثامن سنة ١٩٣٧ فى كتابه «مباحث فى التاريخ» ، ص٥٧٣-٥٨٣ ، عالم الكتب ، القاهرة ، سنة ٢٠٠١ م .

وهذا « جيو » من أحدثهم عهداً ألف كتبه فى أواخر القرن التاسع عشر وهو يسمى أحد كتبه « مستقبل الإلحاد فى العالم » ، فهو يتكهن بزوال الأديان ، ولكنه لا يقول بأنها زالت .

أما الذى وقع فى فرنسا وروسيا بعد ذلك فكان بعد حياة الشيخ محمد عبده ، فصدر فى سنة ١٩٠٤ قانون العزل بين الدولة والكنيسة فى فرنسا وضعه الوزيران كومب رئيس الحكومة وبريان وزير العدل ، وقد كان هذا العزل عملاً سياسياً اقتضته أحوال الدولة ونظام الجمهورية ، وهذا العمل السياسى لم يغلق أبواب الكنائس ولم يحرم العبادات ولم يمنع الشعب من الاعتراف والتناول والعماد ولا من إقامة الأكاليل فى الكنائس ولا من دعوة القسيس وقت الوفاة للصلاة ، ولايزال الفرنسى المتدين بفطرته حتى الساعة يعقد زواجه فى مكتب العمدة ثم ينتقل إلى الكنيسة ليتناول بركة القسيس ليتم العقد الدينى ، لأن الزواج المسيحى رمز للارتباط الدائم إلى الأبد بين المسيح والكنيسة، ولاتزال فرنسا حتى بعد قانون سنة ١٩٠٤ تسمى ابنة الكنيسة البكر ، لأن البابوات اتخذوا أقنيون مقراً لعرشهم أمداً طويلاً ولأن ملوكها قاموا بالحروب الصليبية ضد الشرق والعرب ، وتحمى فرنسا رجال الكنيسة فى البلاد الأجنبية والمستعمرات فى الشرق ، وتحارب لأجلهم إذا دعت الضرورة ، ورجالها الرسميون يحضرون احتفال مدارس الإخوان اليسوعيين ، ولم يفكر بعضهم فى المدرسة

اللادينية (لابيك) « الليسيه » إلا منذ بضع سنين ، على أنها لم تؤثر في وجود المدارس الدينية .

أما روسيا فقد ثارت في سنة ١٩١٧ وحاربت الدين الأرثوذكسي بعد ذلك بأعوام وليست هذه المحاربة صادرة عن الشعب بل عن الحكومة ورجالها وهم قليلون وزعماء النظام الشيوعي ، فاللادينية طارئة على الشعب الروسي بعد سنة ١٩١٧ ومدعمة بالقوة القاهرة وبإرادة حكومة الثورة لا بإرادة الأمة من تلقاء نفسها ، وليس في كتب أحد من أساطين الأدب الروسي مايدل على الإلحاد ، بل أنت ترى تولستوي زعيمهم ومقدمهم وباقعتهم متدينا تديناً صادقاً وامتد إيمانه إلى الأخذ بمبادىء النبي محمد عليه الصلاة والسلام ودرس حياته ومدح مبادءه في كتاب ، وكان من أعظم الناشرين لمذهب المسيح في نظره وهو سيادة السلام على الأرض حتى كان يأمر تلاميذه ومريديه والعالم بعدم مقاومة الشر بالشر ، وهذا من أشهر مبادىء السيد المسيح « من ضربك على خدك الأيمن ... إلخ » .

وبلغ التدين بالشعب الروسي أن والد تروتسكي واسمه الأصيل ليفي داڤيدوفتش أقام صلاة في الهيكل العظيم بمدينة كييف مسقط رأسه ولعن ابنه جهاراً ودعا عليه واستنزل السخط على رأسه من السماء ليقلل من سلطة ولده في الدهماء التي لاتزال تعتقد أن غضب الوالد من غضب الرب لا سيما عامة الشعوب السامية .

لقد قام فى أوربا بعض الفلاسفة الملحدين فكان بجانبهم مئات من الفلاسفة الذين يؤيدون الدين ، فقد ألف سبينوزا وهو من أشهر رجال مدرسة ديكارت ومالبرانش أعظم كتبه فى « الله والإنسان» .

فأين إذن هذه الأوربة الملحدة التى تركت دينها وتخلت عن معتقداتها ؟ والرجل الفرنسى لا يستطيع أن يتخذ لابنه اسماً خارجاً عن القائمة التى تشمل أسماء القديسين والقديسات ؟ . ولايزال عيد الميلاد وعيد رأس السنة وعيد القيامة وعيد الفصح أعظم أعياد أوربا القومية ، فى حين أن المسلمين فى مصر لم يحتفلوا برأس السنة الهجرية إلا منذ عشرين عاماً باقتراح وزير مسيحى هو المغفور له بطرس غالى باشا .

ثم إنه ليس للأعياد الوطنية فى أوربا من الشأن ما للأعياد الدينية، فإن أعياد الاستقلال والحرية وأيام المجالس النيابية وذكريات الثورات ليست سوى مظاهر رسمية مألوفة ، أما الأعياد الدينية فتشمل الأمة والحكومة كلتيهما وتغمرها بالفرح وتعطل فيها أعمال الدولة أياماً عدة.

فالقائل إذن بأن أوربا تركت دينها فتقدمت ، ليس هو الشيخ محمد عبده ، وربما كان رجلاً آخر زار أوربا ولم يخبرها فلم يقف على سوأتها فى أواخر القرن التاسع عشر بما فيه الكفاية .

على أن العبارة المعزوة إليه رحمه الله قد تنطوى على

مجاز يرمز إلى أن الدين الإسلامى أرقى من غيره لأن الأمم التى تركت أديانها الأخرى تقدمت والأمم التى تركت الإسلام تأخرت .

وهذا بحث نرجئه إلى فرصة أخرى .

بقى الشق الآخر من المسألة ، وهو : **هل ترك المسلمون دينهم؟ وهل سبب تأخرهم هو ترك الدين ؟**

الجواب على ذلك فى صراحة وبلا مواربة هو أن الأمم الإسلامية لم تترك دينها تركاً مطلقاً ، لأن الإسلام فى جوهره لا يقتضى من المسلم ما يقتضيه غيره من الأديان ، ولا يتطلب من التضحية بالعقل والمنطق ما يقتضيه سواه ، فيكفى الرجل أن يصرّح بالتوحيد ورسالة محمد ليعدّ مسلماً ، فإذا اعتقد بهما صحّ إسلامه ، ولا يطلب من المسلم أكثر منذ ذلك لإظهار إسلامه ، والله لا يحاسب إلا على الشرك به والإضرار بالناس . أما القيام بالشعائر فليس من الأمور الصعبة ، والصلوات والصيام منطوية على منافع جثمانية وروحانية لا تخفى ، وليس محتوماً على المسلم أن يظهر العبادة إلا فى الجمعة والأعياد ، وقد يقبل العذر فيها فى مواطن كثيرة ، وليس للشيخ أو العالم تدخل فى أعمال الإنسان الدنيوية أو الآخروية ، والزواج عقد مدنى والطلاق صيغة ينطق بها وتدوّن لمصلحة المطلقين ، والوفاة لاتعقبها مظاهر دينية ولا يصحبها غفران شامل من رجل الدين . فالمسلم ليس بينه

وبين ربه حجاب ولا واسطة ، وليس مقيداً بشيء حتى يحاول الفكاك منه ، ولا هو يشعر بضيق القيود والسلاسل فيحاول الخلاص منها .
قال موسيو إدوار لامبير أستاذ القانون بكلية الحقوق بجامعة ليون على مسمع من كثيرين : إنه لو خيّر بين الأديان المنزلة لاختار الإسلام لخلوه من « الدوجم » وهى القواعد المرسومة الواجبة الاتباع ، ولأنه لا يضحى بالعقل والمنطق فى سبيله .

بقى أن فى الإسلام معتقدات نفسانية عن الثواب والعقاب والقيامة والبعث والخلود والجنة والنار ، **وقد روى لى أحد الثقاة عن المرحوم الشيخ محمد عبده أنه قال : للمسلم العاقل ثلاثة آراء فى الدين ، الأول بينه وبين الناس ، والثانى بينه وبين نفسه ، والثالث بينه وبين الله سبحانه وتعالى .**

فإذا تأملت هذه الكلمة الحكيمة وجدتها تشمل الحقيقة وليس فيها رياء أو نفاق كما يبدر إلى الذهن ، فأنت أمام الناس مسلم تقوم بالفرائض وتشهد بوحدة الله ورسالة نبيه ، وبينك وبين نفسك تحاسبها على هفواتها وتعد حسناتها وسيآتها ، وبينك وبين ربك تناجيه بخفايا وجدانك بما لا يصح أن يقال أو يرد على لسان إنسان لما فيه من أسرار النفس لدى ابتهالها وتوجهها نحو ذاته العلية .

الشرق لم يترك دينه ونظرية القضاء والقدر :

إن الشرق الإسلامى لم يترك دينه ولم يتحول عن عقيدته ، فأنت ترى المساجد آهلة فى كل وقت بالمصلين المتعبدين ، كما ترى أضرحة

الأولياء والصالحين حاشدة بالزائرين والمتوسلين ، وترى الكعبة فى كل عام حافلة بمئات ألوف المسلمين من مشارق الأرض ومغاربها ، من الصين وجاوه والهند ومصر والقلبين والشام وتونس العراق والجزائر ومراكش وأقاصى السودان ، وتجد بعض الحجيج فرضوا على أنفسهم وهم فى أشد الفقر أن يحجوا على أقدامهم وقد يسلخون فى أداء الفريضة أعواماً وهم يعلمون أنها لمن استطاع إليها سبيلاً لا لمن يتجشم فى سبيلها أعظم المشاق ويعرض نفسه بسببها للأخطار والمهالك ، فيقصدون إلى جزيرة العرب ، وكانت لبضع سنين آهلة باللصوص وقطاع الطريق والقتلة فيذبحون بعضهم ذبح الشاة ويسلبون أموالهم لا يراقبون فيهم إلا ولاذمة ولايرعون غايتهم الشريفة ولا حقوق الضيافة ، ولم يكن هم لهؤلاء الأعراب الجناة – وهم من المسلمين بالاسم – إلا أن يذبحوا الحجيج وينهبوا أسلابه ويغنموا أمواله ، ولم تقف كل تلك المخاطر فى سبيل المسلمين ولم تعقهم عن الحج .

فالشرق الإسلامى متدين وتدينه ظاهر فى تمسكه بنظرية القضاء والقدر، فكلهم يؤمنون بالقضاء ويصبرون على أحكامه ويحمدون الله على الخير والشر ، ولهم كلمة « الحمد لله الذى لايحمد على مكروه سواه » وقد ابتذلت واستعملها كل « نطع » فثقلت على النفس والسمع!

وأطلق عليهم الإفرنج كلمة « فتاليست » أى القائلين « بالفتاليتى » أى بالقضاء والقدر أو القسمة والنصيب ، ويعتقدون بنفوذ المقدور مهما احتاط له الرجل ولهم فى ذلك أمثال وحكم وأقوال مأثورة تعدّ بعشرات الألوف ، وكتب الأدب العربى والتاريخ الشرقى محشودة بالقصص التى تمثل حوادث القدر وتأمر الإنسان بالخضوع له لأنه حكم الله . وفى القرآن الشريف نصوص كثيرة بهذا المعنى « قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا » . غير أن المسلمين توسعوا فى تفسير آيات القضاء والقدر وفى الأحاديث التى جاءت به حتى تاهوا ، وقد ضل بعضهم ولم يفطنوا إلى أن القدر قسمان ، قسم محتم وقوعه ، وقسم موقوف قد يقع وقد لا يقع ، حتى إنك لتسمع أحدهم فى بعض الأدعية يقول : «اللهم إن كنت كتبتنى فى أم الكتاب شقيا ، فامح اللهم شقاوتى واكتبنى فى أم الكتاب سعيداً ... إلخ » . ومعناه ظاهر أى أنه سبحانه يملك تحسين الحال ومحو القضاء السيىء ، أما القضاء المحتوم فيمكن تلطيفه فتراهم يقولون : «اللهم إنا لانسألك رد القضاء ولكن نسألك اللطف فيه » .

إذن فالمسلم ليس واقعاً تحت القدر إلا بمقدار الربع ، فالنصف يمكن محوه والنصف الباقى يمكن تلطيفه وتخفيفه .

ولكن الخوف من القدر والاستسلام له متمكنان من قلب المسلم وعقله حتى إذا سألته عن الطقس إن كان ينذر بالمطر أو يبشر

بالصحو أجابك لفوره : « هذا شأنه جل جلاله الله يعلم ونحن لا نعلم».

وعبثاً تحاول تفهيمه أن العلماء اخترعوا آلة « البارومتر » للإنباء بتقلبات الجو وآلة أخرى للإنباء بالزلازل ومانعة الصواعق !

المسلم المتوسط لايفهم ذلك ويعتقد أن المطر والصحو وأصغر حادث وأكبر حادث فى الكون بفطه المباشر سبحانه وتعالى وأن النظم الطبيعية لا دخل لها وأنه ليس للطبيعة قوانين تسير بمقتضاها مع التسليم كله بأن الله سبحانه هو واضع هذه النظم وخالق تلك القوانين ومسيرها .

طرق الصوفية :

ليس هذا الإسلام فى الشرق فقط ، بل إن لدينا طرق الصوفية المنتشرة فى أنحائه وتكاد لا تحصى وهى قائمة على أنواع العبادات الباطنية والانقطاع للذكر والزهد والتجرد من الدنيا ولها نظم وأسماء وقواعد، وللأولياء سلاسل ودرجات من أقطاب وأبدال وأوتاد ، وقد انقسموا فرقاً وشيعاً ، ولكل فرقة طريق تسير فيه ، وكل متصوف أو صاحب عهد يطمح إلى «الوصول» ، ومهما كان الدرويش صغيراً فى نظر شيخه أو فى نظر إخوانه ، فباب « الوصول » مفتوح أمامه على مصراعيه ، وهم يقصدون « بالوصول » مشاهدة الذات الإلهية فى هذه

الحياة الدنيا وهو ما لم يقل به محمد صلى الله عليه وسلم وهو أشرف الخلق وأطهرهم وأرقاهم وأكملهم وأحبهم إلى الله ، وقد قال سبحانه فى هذا المقام الأسنى « فكان قاب قوسين أو أدنى » .

فكل درويش مهما تواضع شأنه ، يطمع فى أن ينال ما لم يقل به صاحب الشريعة ، ولا أدرى من غرس تلك العقيدة فى نفوسهم ، ويغلب أنها وثنية الأصل وصلت إلى الإسلام عن طريق البوذية والماجوسية كما وصل التصوف نفسه - وهو غريب على الإسلام - عن طريق تلك المعتقدات القديمة وعن طريق الحكمة اليونانية .

فترى مما تقدم أن المسلمين لم يتركوا دينهم بل توسعوا فيه وزادوا عليه .

أسباب تأخر المسلمين :

فلننظر الآن فى أسباب تأخر المسلمين ، هل لها علاقة بالدين أم هى راجعة إلى الأمور الدنيوية ؟

كان المرحوم جمال الدين الأفغانى يرمى إلى توحيد كلمة المسلمين فى العالم معتمداً على وحدة العقيدة ووحدة اللغة .

وكان الكواكبى يرمى إلى تأليف دول وولايات متحدة إسلامية تدافع عن المصالح المشتركة .

وكان إسماعيل غصبرنسكى يقول إنه رأى المسلمين فى كل صقع

وقطر متأخرين عن إخوانهم فى الوطن والجنس واللغة ، وضرب أمثالاً بالمسلمين فى الصين وروسيا وسوريا ومصر وشمال إفريقيا ، وكان رحمه الله يرى علة التأخر فى الدين أو طريقة فهمه وتطبيق قواعده.

ويرى بعض المصلحين فى الإسلام أن سبب تأخرهم هو فى إقليمهم وشيخوختهم ، فقد مروا بدورهم فى المدنية فى الأجيال السالفة وانتقلت المدنية إلى الأمم الأخرى التى جاء دورها .

علماء الرسوم :

ويرى آخرون أن سبب التأخر من علماء المسلمين أو **علماء الرسوم الذين أعانوا الظالمين بفتاواهم وآرائهم على ظلم الرعية ودكّ معالم العدل والعلم ، فنصروا الظالمين من الفاتحين سواء أكانوا من الشرق أم من الغرب استجلاباً لمصلحتهم العاجلة** ولم يقم من ضمائرهم وازع يزعهم ولا من عقيدتهم رادع يردعهم ، فشاركوا الظالم الباغى فى ظلمه وبغيه ليكون لهم فى الدولة أعظم نصيب من النفوذ والمال ، وبذلوا فى هذا السبيل مصالح الشعب ، فكانوا أشبه الناس بكهنة الشرق القدماء وسدنة الأوثان يحكمون الشعب منفردين أو شركة مع الملوك ويخفون عقائدهم عن عامة الشعب ويوهمون الدهماء أنهم حاكمون بأمر المعبود، ولعل كهنة الوثنية أتقى من بعض هؤلاء العلماء وأنقى قلبا ، لأن الكهنة

كانوا يعتقدون أن طينتهم أرقى من طينة البشر ، ولايزال البراهمة فى الهند يعتقدون كثيراً من الشعب أنجاساً ، وكذا كانت لكهنة المصريين القدماء مكانة خاصة .

ولكن علماء المسلمين فى أقطار العالم ليسوا من طينة خاصة وليسوا أرستقراطيين ولا أمراء ولا ولاة أمور الشعوب الإسلامية ، وكلهم من أصول وسطى إن لم تكن وضيعة ، رقوا مناصبهم بالعلم ، والعلم فى أعناقهم أمانة عليهم أن يؤدوها إلى أهلها لا أن يكونوا مع الظالمين والغالبين حرباً على شعوبهم وعلى الدين الذى وصلوا بفضله إلى الذرى !

وفى كل صفحة من صفحات التاريخ الإسلامى تلقى لعلماء المسلمين أعمالاً أنزلت بالشعوب أنواع البلاء وأضرّت بالإسلام وأعانت الظالمين الطغاة على تلك الشعوب . وفى تاريخ الشرق الإسلامى ذكر كثير من مساوىء هؤلاء العلماء الذين انتحلوا صفة « شيوخ الإسلام»، وليس للإسلام شيوخ ويصح أن يكونوا شيوخ جامع أو مدرسة أو شيوخ لفيف من العلماء وليسوا شيوخ الإسلام .

وما علمنا فى العهد الحديث سوى أفراد معدودين على الأصابع تنزهوا عن الهوى واتبعوا الدين على حقيقته وكانت لهم فى العلم والتقوى مكانة ، فخدموا الأمة والملة ودافعوا خير دفاع عن الإسلام .

وقد تغيرت الأحوال والأخلاق بحيث إذا قام بين العلماء مصلح اضطهدوه وأقصوه عن حظيرتهم وكفّروه ، وليس ببعيد ماحدث للشيخ محمد عبده ، فقد لقى الاضطهاد فى أول الأمر وآخره ، ويعزى كمده وقهره وكيده الذى كان سببا فى اشتداد مرضه ودنو أجله إلى مؤامرة دبّرها شيخ صحفى كان مشهوراً وأحد أمراء الشرق ولفيف من العلماء، فخطبهم الأمير فى قصره خطبه قاسية وجهها إلى الشيخ المفتى ونشرت بحذافيرها فى جريدة المؤيد وحولها إطار مزركش ومن ألفاظها المأثورة : « أنا لا أريد فى الأزهر فلاسفة بل أريد علماء أتقياء»(١).

وما أشبه هذه الخطبة ومجلسها بالمجلس الذى حوكم فيه ابن رشد فيلسوف الإسلام العظيم بالأندلس !

أما الكثرة من العلماء فقد جعلت ديدنها الوقوف بجانب القوى والذبّ عن مصلحته ولو كانت ضد الشعب ، ولهم مقابل ذلك الأموال الكثيرة والألقاب (الرفيعة) والفراجيات الفضفاضة والولائم الرداح فى كل حفلة وعيد !

---

(١) يرجع إلى نص هذه الخطبة فى المؤيد.
وقد نشرت فى كتاب لطفى جمعه « قطرة من مداد لأعلام المتعاصرين والأنداد»، فى ترجمة الشيخ على يوسف ، ص ١٩٩ - ٢٠٣ ، عالم الكتب ، القاهرة ، سنة ١٩٩٨، كما أعيد نشرها أيضا فى كتاب المؤلف « مباحث فى التاريخ » ، ص ٢٩٤ - ٢٩٧، عالم الكتب ، القاهرة ، سنة ٢٠٠١ م.

فأين هؤلاء من السلف الصالح أو أتباع السلف الصالح أو رائحتهم ؟بل أين هم من أحد العلماء الأقربين ولعله المرحوم الشيخ حسن الطويل الذى روى أنه لما دُعى للقاء السلطان عبد العزيز لدى زيارته مصر ، فنُبّه الشيخ إلى الحضور بكسوة التشريفات ، فجاء يوم المقابلة بثيابه المألوفة وفى يده ربطة وسار حتى دنا من منصة السلطان وقال له : « السلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته ، إن أردت رؤية حسن الطويل فها أنا ذا بين يديك ، وإن أردت رؤية ثياب التشريف فقد جمعتها فى الربطة ! ... وبعد فإننى أتقدم إليك بالنصيحة ، فالعدل العدل والرحمة الرحمة ! وعليك بأوامر الله وإياك ومخالفة نواهيه والسلام عليك ورحمة الله وبركاته!» .

أفلا تشبه هذه الصورة صفحة من صفحات الصحابة رضوان الله عليهم ؟ فأين أنتم أيها العلماء من هذا الرجل وأمثاله؟!

تألب أوربا على الإسلام من أسباب تأخره :

وقال فريق من المصلحين إن تأخر الإسلام راجع إلى تألب أوربا عليه ويقظتها وتعمدها محاربته ومقاومته فى كل ما يرمى به إلى النهضة فى سائر أنحاء العالم ، ويؤيدون قولهم بأدلة من التاريخ القديم والحديث .

فمن القديم تلك الحروب الصليبية التى حرض عليها البابا فلبّى نداءه ملوك أوربا وفى مقدمتهم ريكاردوس الذى لقبوه « بقلب الأسد » ولويس التاسع فرفعوه إلى مقام الأولياء وصار « القديس لويس » . وكان نصيب أولهم أن فقد ملكه ، اغتصبه أخوه ثم عذب ولى عهده وحاول أن يفقأ عينه بالحديد المحمى ، ولجريمة العم على أخيه وابن أخيه خبر طويل .

ومرض قلب الأسد بالحمى وعالجه فى عكاء صلاح الدين حتى أبل .

أما لويس التاسع فقد أسر وسجن فى القاهرة وكان يخدمه طواشى زنجى اسمه « صبيح » .

وفى القرون الوسطى اضطهدت أمة الأسبان سادتها السالفين من العرب بعد أن حاربهم شارل مارتيل الفرنسى وهزمهم فى موقعة بواتييه وتشتت شمل المسلمين فى العالم إلى أن تأسست دولة آل عثمان فى الآستانة وأعادت فتح العالم المتوسط ، فناوأتها أوربا واتحدت عليها ومازالت بها تتعمد محاربتها وهزيمتها، وكان فساد الأخلاق عند الترك وتراخى المسلمين والحروب الداخلية بين الأمم الإسلامية من أقوى عناصر الهلاك حتى فنيت الدولة العثمانية واستولت أوربا على أملاكها فى فترة لاتزيد على أربعين عاما ، وكانت دولة آل

عثمان قد سلخت أربعمائة عام فى تكوين إمبراطوريتها ، ولما نهضت أمة مسلمة شرقية فى آسيا وهى أفغانستان حاربتها إنجلترا فى السر وفى العلانية حتى قضت على استقلالها وشردت ملكها الذى كان مع عيوبه محباً للإصلاح .

وقرأنا كغيرنا فى صحف الأخبار أن الثورات فى أنحاء تركيا الحديثة تقوم بتدبير دولة أجنبية استعمارية ، وجاءت الأنباء تترى بإعدام سبعة من ضباط الإنجليز ثبت اشتراكهم فى الثورة الكردية.

فكأن خروج تركيا على التقاليد القديمة ولبس القبعات بدل العمائم وكتابة الأحرف اللاتينية وتقليد أوربا فى الصغيرة والكبيرة للتدليل على قطع كل الصلات بالدولة القديمة - لم يكسبها عطف أوربا ولم ينسها أحقادها القديمة على الإسلام والشرق ولم يطفىء نار ضغنها على من ينتمى إليها ولو من بعيد .

ولانزال نذكر تلك الدولة التى سلّحت اليونان سنة ١٩٢٢ ضد تركيا الحديثة ، فكانت الهزيمة نصيبها وتلاها سقوط الوزير الأعظم لويد جورج الذى ربح الحرب للحلفاء وخسرها فى الأناضول !

وفى سنة ١٩١٢ قامت أوربا على تركيا خفية وأوعزت إلى دويلات البلقان بالحرب ، فهبّت واجتاحت أملاك تركيا فى أوربا ،

وكانت إيطاليا قد هجمت من قبل على طرابلس الغرب واحتلتها ، وفى سنة ١٩٠٤ اتفقت إنجلترا وفرنسا على اغتيال البقية الباقية من العالم الشرقى كما اتفقتا من قبل عشرين عاماً على مصر وتونس ، وكما اتفقت روسيا وإنجلترا على اقتسام بلاد الفرس فقسموها أولاً إلى منطقتى نفوذ وهو عمل استعمارى مثله كالجلوس على المائدة والاستعداد لالتهام الطعام !

وكانت فرنسا قبل ذلك بسبعين عاماً قد احتلت بلاد الجزائر لسبب تفه وهو لطمة مروحة على خد السفير من التاى أو الداى . وكان احتلال فرنسا أرض تونس بغير حرب ، وانتهزت إنجلترا فرصة يقظة الوطنية المصرية ضد الحكام من الشركس والأرناؤوط والأروام فاحتلت مصر بحرب ملؤها الغدر والخيانة وشراء الذمم.

واستولت هولندا على بلاد أندنوسيا واضطهدت أهلها واستعبدتهم ، واحتلت جمهورية الولايات المتحدة الأمريكية جزر الفلبين دفاعاً عن مذهب مونرو ، وفى الجزائر المذكورة كثير من المسلمين . ولما كانت الحرب العظمى ، استولت أوربا على العراق وسوريا وفلسطين وهى تركة الدولة العثمانية .

هل هناك أسباب أخرى غير مناوأة أوربا للإسلام والمسلمين ؟:

كل هذا صحيح وثابت ومشاهد بالأعين ، فهل سبب سقوط تلك الدول مناوأة أوربا فقط ؟ أم أن هناك أسبابا أخرى بجانب تلك

المناوأة ساعدت أوربا على القضاء على تلك الشعوب والممالك ؟

اللهم إن أوربا وأمريكا لم تنالا من اليابان وكانت منذ خمسين عاماً أمة همجية وهى شرقية ولاتزال وثنية تعبد الأجداد وبوذا وكونفوشيوس والفرس والمرآة والشمس ، ولكنها كانت - والحق يقال- قوية الجانب ، فلما حاربت الصين وهزمتها (١٨٩٠) ثم حاربت روسيا وصمدت لها وانتصرت عليها (١٩٠٥) ، تقدمت إليها أوربا وصافحتها واحترمتها ، وعاهدتها إنجلترا بعد أن عدتها فى صف الدول العظمى ، وكانت أوربا تغتال الصين والهند وهى بلاد شرقية وثنية .

فلم يكن السبب فى هجوم أوربا على الشرق الإسلامى كونه شرقياً فقط ولا كونه إسلاميا فقط ، بل هاجمته لكونه ضعيفاً ، فليس على الباحث النظر فى أسباب تأخر المسلمين ، بل النظر فى أسباب ضعف المسلمين الذى أدّى بهم إلى هذا التأخر .

لماذا ذهبت دولة الأندلس وضاعت الدولة الأموية والدولة العباسية والدولة الفاطمية والدولة العثمانية ؟ ولم اندثرت دولة المماليك فى مصر وتلاشت كل دولة إسلامية فى العالم ؟ وما أسباب الضعف التى أدّت إلى هذا التلاشى الذى كان تارة سريعاً وطوراً بطيئاً ؟

هل تركت أوربا دينها ؟ :

أما القول بأن أوربا تركت دينها فتقدمت والشرق ترك دينه فتقهقر[١] فقول هراء لا يدعمه دليل بل قامت الأدلة على عكسه ، حتى فى هذه الأيام وبعد وفاة الشيخ محمد عبده بثلاثين عاماً ، فقد كتب الأمير شكيب أرسلان وهو من زعماء الإصلاح فى العالم الإسلامى فى « لادينية أوربا المزعومة » ، قال :

« إنى لأسأل كل مكابر هل بقى فى الغرب أو فى الشرق بلد معروف ، فيه كنيسة كاثوليكية لم يحصل فيها احتفال بقداس دينى عن روح المارشال چوفر ولم يكن ذلك القداس تحت رياسة سفير فرنسا أو قنصل فرنسا الذى فى ذلك البلد ؟ ... إنى لسائل كل مكابر ، فإذا كانت فرنسة دولة لادينية كما يقال فلماذا هذه الشعائر الكاثوليكية التى تقام عن روح المارشال چوفر بكل احتفال وكل احترام فى جميع البلدان من أوربا وأمريكا وآسيا وإفريقية ولا تقام إلا تحت حماية رجال فرنسة السياسيين ؟

لعلهم يقولون إن چوفر نفسه كان كاثوليكى العقيدة ، فمن الطبيعى أن تقام الصلوات عن نفسه فى الكنائس الكاثوليكية أشبه بما يقام من صلاة الغائب عندنا فى مساجد الآفاق .

---

(١) انظر صفحة ٤٣ - ٥٦ من هذا الكتاب .

والجواب أن القضية ليست قضية چوفر ذاته بل قضية دولة فرنسة نفسها التى ترأست جميع هذه المحافل الدينية التى أقيمت لچوفر ولغير چوفر من رجالها .

إذن فرنسا ليست بدولة هازئة بالدين كما يريد أن يصورها بعض المكابرين في الحقائق .

وإذا كان فى فرنسة رجال الدين غير متصلين بالحكومة ولا للدين صبغة رسمية فى الوزارة مثلاً ، فلا يمنع هذا من أن تقوم الحكومة الفرنسوية بالإجلال الواجب للدين الكاثوليكى الذى هو دين السواد الأعظم من رعيتها والذى نراها تحميه فى الخارج كما كانت تحميه فى القرون الوسطى .

لقد حمت مؤتمر « الأفخار ستيا » الدينى الكاثوليكى الذى انعقد السنة الماضية فى تونس ، كما أن دولة إيطاليا جاءت تحمى مؤتمر الأفخار ستيا المذكور المنعقد هذه السنة فى رودس ، فأما مسلمو تونس فعندما اعترضوا على عقد هذا المؤتمر فى أرض إسلامية ، فقد استغرب ذلك الفرنسيس ، فليقرأوا الآن اعتراضات جرائد اليونان على انعقاد هذا المؤتمر الكاثوليكى فى أرض أرثوذكسية وقولها : إن هذا تحرش بالكنيسة الأرثوذكسية إذ لا شأن للكاثوليك برودس » أ.هـ.

ولعل ما كتبه الأمير شكيب أرسلان وذكرناه آنفا أن

يكون أبلغ رد على من لايزال يعتقد بصدق الكلمة المعزوة إلى الشيخ محمد عبده أو يتوهم لادينية أوربا أو هزؤها بالدين المسيحى !

وعلى ذكر چوفر والحرب ، نذكر أن أوربا فى أثناء الحرب الكبرى انقلبت أمماً شديدة التدين ظاهرة التمسك بالإيمان وذلك من هول ما رأت من أخطار المنايا وأسباب الردى ، فإن القساوسة يصحبون الجيوش ويباركونها ويواسون المرضى ويضمدون جراحهم ويغمضون أجفان القتلى بعد الغفران ، وفرحت الكنيسة وهلّلت بنفوذها وقام رجال منهم بنصيب وافر من خدمة الميدان .

واعتقد المحاربون فى بعض المواقع أن الملائكة تناصرهم وتشدُّ أزرهم وأن المسيح أرسل جنوداً من الأرواح للأخذ بيدهم والمحاربة فى صفوف الحلفاء ، وصحف الأخبار حافلة بهذه الأنباء لا سيما عند ذكر موقعة إيپر المروّعة ، وانتشرت عقيدة الخلود واتصال أرواح الموتى بالأحياء فى الحياة الدنيا ، وقام رجال من أهل العلوم الطبيعية والرياضية فى إنجلترا وفرنسا يؤيدون النظرية الروحانية منهم سير أوليڤر لودج وكونان دويل والأساتذة ريشيه وچيلى فى فرنسا وكثيرون فى إيطاليا وأمريكا ، وأنشئوا المجلات وألفوا الكتب وأسسوا المجامع لهذا الغرض ، ولاتزال بعض المعاهد

تعمل لنصرة الفكرة وأربابها .

وهذه المعتقدات هى بلا ريب دينية ، لأن الأديان قائمة على وجود الله وبعثة الرسل والملائكة وخلود النفس ومحاسبتها والثواب والعقاب والنعيم والجنة . وللمسلمين مؤلفات كثيرة فى بقاء الروح بعد الموت ومشاهدتها لذويها ووقوفها على رأس الميت فى القبر . ولاتخرج أقوال لودج وديل عما ورد فى « الدر المنثور فى أخبار أهل القبور » وهو من الرسائل المنتشرة بين أيدى العامة فى مصر وغيرها من الأقطار الإسلامية .

خطبة لويد جورج :

وعلى ذكر دينية أوربا تحضرنا خطبة المستر لويد جورج فى تكريم لورد اللنبى الذى « دخل » بيت المقدس فوصفه بأنه « آخر أبطال الحروب الصليبية » !

ومعنى هذا أن تاريخ الحروب الصليبية متصل فى ذهن هذا الوزير الاشتراكى النشأة وزعيم حزب الأحرار من عهد ريكارد ولويس إلى عهد لورد اللنبى وحرب فلسطين وفتح بيت المقدس ، وإن كان اللنبى آخر غزاة الحروب الصليبية ، فأى لقب يخلعه لويد جورج على خفنه وريبب عهده كولونيل لورنس ؟

وليس يخاف على أحد أن لويد جورج هذا بدأ اشتراكياً متطرفاً وخطب فى لايم هاوس خطبة ذات خطورة اجتماعية ، ثم

انقلب حرا وكاد يكون فى الحرب محافظاً ، ولما سقط فى سنة ١٩٢٢ جرّ حزبه معه إلى الهاوية وهما فى سنة ١٩٣١ على حافة الموت يحتضران .

فأين تلك الأوربة التى تركت دينها وتخلت عنه ، فتقدمت ؟!!

اتهام أوربا المسلمين بالتعصب وماترتب على ذلك :

لا ريب فى أن أوربا تتهم المسلمين بالتعصب ، ومن يتهم غيره بالتعصب يريد أن يعيرّه ليظهر هو بمظهر البرىء من التهمة ، وكانت هذه حيله سياسية ناجحة ، **فإن اتهام الشرق والإسلام بالتعصب جعل المسلمين يتهاونون فى دينهم شيئاً فشيئاً ويقللون من مظاهر تمسكهم به لئلا يرموا بالتعصب ، وهذا نفس ماقصدت إليه أوربا.** أما هى فمتعصبة ومتمسكة بدينها أشد تمسك وتصف من يدفع عن دينه ووطنه وقومه بالبطولة وصدق الإيمان ، وتنسب وصمة التعصب والجهل والوحشية إلى من يفعل فعله من المسلمين وأهل الشرق ! . وقد رأيت من أثر الخوف من تهمة التعصب الكاذبة لدى بعض فضلاء المسلمين أنهم إذا صاموا وسئلوا فى ذلك أنكروا أو أجابوا بأنهم يصومون صوماً علمياً ولصحة الأبدان !! ويخشون أن يقولوا إننا صمنا عملاً بأمر الدين أو أداء لأحد فروض عقيدتنا ، ومنه ترى نجاح أوربا النجاح كله فى دعايتها ضد الإسلام !

أسباب ضعف المسلمين :

ولنرجع الآن إلى جوهر البحث فى أسباب ضعف المسلمين ، فإن أحد ملوك الشرق يصف الداء على قدر نظره فى الأمور وهو مسلم عربى كابد أحوال الشرق والغرب قال : ترك المسلمون دينهم وأخلاقهم جانباً وزهدوا فيما هو أصل حياتهم ومنبع شرفهم ... وليتهم إذ خسروا جواهر دينهم وأخلاقهم حافظوا على شرف دنياهم كما حافظ عليها غيرهم وصرفوا همهم إلى ما يقوى جانبهم أمام العواصف والنكبات ، ولكن المصيبة أنهم جمعوا بين الإفلاس فى الدين والإفلاس فى الدنيا ، فكانوا بهذا عبيداً لسواهم يتحكم فيهم ولا يرقب إلا ولا ذمة .

يقولون : لماذا يستولى علينا الأعداء اليوم ويقبضون على مصالحنا وبلادنا التى عشنا فيها ؟

يقولون هذا وهم يعلمون أنهم قد فرطوا بالواجب المحتم وأنهم لم يأخذوا للأمر عدته وأهملوا أمر الدين والدنيا معا ، ويعلمون أيضا أن ليس هناك جامعة واحدة تجمعهم لا فى الدين ولا فى الجنسية ولا فى اللغة .

إن الحكيم العاقل اليوم - من جراء مانزل بالمسلمين من المصائب - ليصيبه قلق دائم واضطراب لا قرار له معه حتى ليفضل أن يجيب داعى ربه عجلاً لئلا يبصر من المزعجات مالا

طاقة له به ومن الفتن ما يخشى أن لاينجو منها ، يفضل هذا إيثاراً للسلامة من شرور هذا الوقت الذى قال فيه الرسول صلى الله عليه وسلم : « ستكون فتن كقطع الليل المظلم يصبح الرجل فيها مؤمناً ويمسى كافراً ... إلخ » .

« ويزداد ألمى فى هذه الحياة كلما علمت **أن مصيبة العرب والإسلام بأهله أعظم من مصيبته بأعدائه** ، وإنى لا أخشى العدو الذى لا تجمعنى وإياه جامعة مثلما أخشى أبناء دينى ولغتى الذين لا أعرف سببا واحداً يبرر أعمالهم العدائية التى يقومون بها فى مناوئة الحق والتنديد به ومقاومة دعاته ، هداهم الله إلى الخير!».

انتهى كلام ذلك الملك الشرقى المسلم .

التصوف وتأخر المسلمين :

ثم ترىٰ مفكراً من المسلمين الذين عركوا الدهر ينسب **تأخر الإسلام إلى التصوف** [1] ، فقال : « أعدْ نظرك كرة وراجع مذكرات حافظتك مدة فهل تجد غير سبب واحد لاختلاس الأقطار وانتهاب الأمصار ؟ وما ذلك السبب غير قطبانية فلان (نسبة إلى القطب فى اصطلاح الأولياء) وغوثانية علان وختمية هيان وبدلية زعطان ؟!

---

(١) انظر صفحة ٥٥ - ٥٦ من هذا الكتاب .

ألا إن هذا يظهر بمظهر الختم المكتوم ، وذلك يتجلى فيه الغوث المعصوم ، وآخر بالتحديث وغيره بالتهويش ، والهمل الرعاع ضاعت بين هذه الرتب العظيمة والمناقب الجسيمة ، فرحمتك لخلقك يا أرحم الراحمين ياغياث المستغيثين !!».

ولو جردنا هذه الكلمة من صيغة التهكم التى أفرغت فيها ، لم تخف علينا مقاصد كاتبها .

ليس لبحثنا طبيعة دينية :

ينبغى أن نصارح القارىء **بأن ليس لبحثنا صبغة دينية** وإن ذكرنا الدين فإنما نذكره عنصرا قومياً ولا نذكر الإسلام إلا مدنية قد عاش فى كنفها مدنيات كثيرة ، فكانت للمدنية الإسلامية أياد كثيرة على العالم المتحضر الحديث ، كما كان للعرب والمسلمين الفضل فى نقل الحكمة والفلسفة من بلاد اليونان القديمة إلى أوربا الحديثة .

ولم يكن الإسلام معارضاً الفلسفة ، فنبغ من أهله عظماء جمعوا بين الحكمة والشريعة ونظموا الفلسفة والعقائد فى عقد نضيد ، وكان فيلسوف العرب الأكبر فى أوربه القاضى ابن رشد وهو من أئمة الفقهاء والقضاة ، وكان أبوه وجده من قبله من كواكب المذهب المالكى فى الأندلس .

وكان العرب فى القرون الوسطى أساتيذ الأوربيين ، فإذا تخرج أحد الفرنجة على أستاذ عربى ، تباهى بذلك بين قومه وتاه على قرنائه !

فكرة القضاء والقدر والعمل والجهاد وإعمال العقل فى الإسلام :

تكلمنا على القضاء والقدر وبيّنا فكرته المستولية على عقول الدهماء فى العالم الإسلامى [١] ، وقلنا إن تلك الفكرة من أثر آراء المسلمين الجهال ومن تعليم علماء الرسوم الذين استخدموها لنصرة الحكام الظالمين ، وانتفع الإفرنج من ذيوع فكرة القدر فى الشرق الإسلامى ، فزعمونا أمة لاتحرك ساكنا لتنفيذ الإرادة وسيادة العقل !

ويدل على فساد هذا الرأى الأجنبى أن القرآن الشريف ملآن بالحث على العمل وحافل بالآيات التى تستنهض الهمم وتقوى العزائم ومنها « وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله » « ويا أيها الذين أمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول ولا تبطلوا أعمالكم» «وإليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه » « ووجدوا ما عملوا

---

(١) انظر ما كتبه المؤلف عن القضاء والقدر صفحة ٣٩ ، ص ٧٥ ، ٧٦ من هذا الكتاب.

حاضراً » « ولكل درجات مما عملوا وليوفيهم أعمالهم وهم لا يظلمون » « ويقول نوقوا ماكنتم تعملون » .

وقد أمر النبى بالعمل والجهاد ، ولو كان مجرد الرسالة أو المكانة عند الله كافية ، لاستغنى النبى عن الجهاد هو وصحابته ، فإنهم الطبقة التى هى أولى بأن يسمع الله دعاءها ، ولكن النبى لم يعتمد على مكانته عند ربه ولا على قدره وهو رسول مبعوث لنصرة دينه ، بل حارب واشترك بنفسه فى المواقع كلها ومن ضمنها موقعة أحد ، وقد خالف جنوده أمره فى تلك الموقعة وكر عليهم المشركون حتى شج رأس النبى .

فدين المسلمين هو فى الحق دين عمل لا دين كسل وليس هو دين الاعتماد على القدر المجهول لنا والبقاء بأيد مكتوفة حيال ماتأتى به الحوادث الغيبية ، وليس رزق البشر عند الله بدون عمل ، فإن النملة تسعى لرزقها كما يسعى الفيل لرزقه ، وليس الإسلام فى حقيقته دين استسلام واتكال ورقاد ، بل هو دين جد واجتهاد وعمل وجهاد ، وإن كان فى مبادىء الإسلام شىء من التسليم للأقدار ، فإنما هذا التسليم أو التفويض مقرون بالعمل والجد والسعى ، يسأل بعض الصحابة النبى عن القدر : « ألا نتكل ؟» فقال : « اعملوا فكل ميسّر لما خلق له » . وضرب النبى العربى مثلاً إذ قال للعربى الذى سأله

عن ناقته إذا أراد دخول المسجد، فأجابه : « اعقلها وتوكل » فسارت مثلاً . اعمل واجبك واترك ما بقى للقدر . وقال الشاعر العربى : « وعليك أن تسعى وليس عليك إدراك النجاح » كما قال : « على المرء أن يسعى لما فيه نفعه » ، ومعنى هذا ومعنى روح الإسلام فى هذه المسألة أن يدبر الإنسان لنفسه بهداية عقله الذى جعله الله مرشداً ، وهو يعلم مع ذلك أن الأمر ليس كله بيده وأن من الأقدار ما لا تدركه الأفكار .

لماذا يتمسك المسلمون بنظرية القضاء والقدر ؟ :

وقد تسأل : ولماذا يتمسك المسلمون بنظرية القضاء والقدر فى حين أن غيرهم من الأمم قد وردت فى أديانهم تعاليم عن القضاء والقدر ولم يتشبثوا بها ؟

فقد جاء فى الإنجيل « لا تسقط شعرة من رؤسكم إلا بإذن أبيكم فى السماء » ، ومع ذلك فلا نجد مسيحياً مستسلماً للقضاء أو خائفاً على نفسه من الموت أو الأذى فى سبيل عمله أو فى سبيل مبدئه .

ولو أن علماء الرسوم كانوا مخلصين لله وللدين لفسّروا نظرية القضاء والقدر على حقيقتها ولأبانوا للمسلمين أن كل ما ورد فى الدين من نصوص القضاء والقدر إنما يقصد به إلى سبق علم الله بكل ما يقع فى الكون من الحوادث ، وأن القدر أو المقدار هو

النظام الذى جرت به سنن الله فى التكوين والتدبير والأسباب والمسببات ، وليس المقصود به نفى الاختيار والتزهيد فى الكسب والسعى للمجد ، وهذه هى العقيدة السليمة التى اهتدى إليها النصارى فلم يستسلموا ولم يتواكلوا .

ويجب أن يقف المسلمون عند هذا الحد ولا يقضوا على البقية الباقية من مجدهم بالاستمرار فى نظرية القدر القديمة الخاطئة ، وليعلموا أنه من التناقض الظاهر أن يجمع الدين بين الأمر بالعمل والسعى وبين الأمر بالكسل والرقاد والاتكال فى الرزق والنجاح والنصر عليه .

فتبين من هذا أن من عناصر ضعف المسلمين نظرية القضاء والقدر التى أخطأوا فى فهمها ، وليس عداء أوربا ومحاربة الأجانب لهم وتألبهم عليهم غرباً وشرقاً ، فقد ثبت أنه كما حاربهم الإفرنج الصليبيّون من الغرب ، كذلك هاجمهم المغول والتتر بقودهم تيمور لنك وهولاكو من الشرق ، فأبادوا المدنية العربية فى حواضر الإسلام .

تنافس ملوك المسلمين فيما بينهم :

ولم يكن منافسة ملوك المسلمين فيما بينهم بأقل خطباً من الأعداء الأجانب ، فقد تبعوا شهواتهم وهدموا دولهم بأيديهم ،

وأمعنوا فى الضلال وحادوا عن جادة الحق والفضيلة ، وضيعوا ما ورثوه من الأخلاق الكريمة التى جاء بها كتابهم المنزل ، فكان ذلك البلاء الداخلى معيناً للبلاء الخارجى على المدنية الإسلامية فبادت وقضى عليها [١].

جمود علماء الرسوم وقفل باب الاجتهاد :

ومن عناصر ضعف الإسلام وتأخره جمود علماء الرسوم وقفل باب الاجتهاد ومجاهرة هؤلاء « العلماء » المضللين بمحاربة كل جديد فمهدوا السبيل بجمودهم لأعداء المدنية الإسلامية وسهلوا لهم الطريق لمحاربتها فتسلحوا بفكرة فتاكة وهى أن تأخر الدين وجموده راجعان إلى تعاليمه وقواعده .

وترى هؤلاء العلماء الجامدين يقولون : هذه الدار ليست دار بقاء ومتاع الدنيا قليل والآخرة خير وأبقى ، فيفسّره العامة بأنه حض على احتقار الدنيا والزهد فيها وازدرائها وترك السعى والعمل للأخذ بنصيبنا .

وإذا حلت بمسلم مصيبة قالوا له : اصبر فالمؤمن مصاب ! والله يمتحن عباده المؤمنين ... وهكذا مما يثبط الهمة ويزيد فى

---

(١) انظر ماجاء على لسان أحد الأمراء الأمويين فى كتاب سراج الملوك (المؤلف).

الهم ولايهون الخطب ، فترى المسلم يتساءل متحيراً : لماذا يصاب المؤمن المخلص وينجو الشرير الخبيث ؟ وما الحكمة فى ذلك ؟ ولم خفيت علينا تلك الحكمة ؟ والله سبحانه أعلم بنا منا وبطاقتنا على احتمال المحنة ، فما حاجته لامتحاننا ؟

على أن تفسير وقوع البلاء فى الحياة الدنيا إنما يرجع إلى سير الحوادث والمصادفات وامتزاج الخير بالشر وتحتم وقوعهما معاً أو على التعاقب ، وأن ذلك ضرورى ومن نظم الحياة فى العالم، وأن الإنسان ليلقى الخير والشر بلا ترتيب ولا انقطاع ، وربما كان نصيبه من الخير أوفى وهو يجهل ذلك أو يتجاهله ، ولعل للخطوب فوائد وقديما قال شكسبير : «ما أحلى ثمار الشدائد ... إلخ » ، فلو أن هؤلاء العلماء فسّروا الكوارث على هذا النمط كانوا أقرب إلى العقل والإيمان .

دعْ أن الكوارث من بواعث الهمم ، وربما كان الخطب عقاباً على جريرة لا يعاقب عليها القانون الوضعى ، فتكون داعياً للحذر والانتباه ومحاسبة النفس لإصلاحها .

وإلا فأين إذن مصداق القول بأن الإسلام دين الدنيا والآخرة؟ والقول المأثور : « اعمل لدنياك كأنك تعيش أبداً واعمل لآخرتك كأنك تموت غداً » ؟ وأين المثل العليا للحياة التى جاءت فى القرآن وفى وصف الجنة من صنوف الجمال والجلال وأنواع السعادات

مما يحسن بالمسلمين أن ينسجوا على منواله فى هذه الحياة الدنيا؟ وإلا فأين تمايز الإسلام على غيره من الأديان الأخرى التى أمرت بالزهد فى الأموال والكسب والدنيا وملكها أوامر صريحة ؟

الإسلام نظام محكم :

ألا إن تفاخر المسلمين بدينهم راجع إلى أنه يشمل نظاماً محكماً للتشريع والمعاملات الدنيوية والحياة الاجتماعية مما لم يرد مثله أو ما يقاربه فى الأديان الأخرى حتى إن النبى صلى الله عليه وسلم كاد يحصر الدين فى العلاقات المدنية حيث قال : «الدين المعاملة » .

وهؤلاء العلماء الجامدون هم الذين حاربوا العلوم الحقة كالطبيعة والرياضة والفلك والفلسفة وفنونها وصناعاتها على أنها من علوم الكفار ! مع أن علوم الطبيعة هى الباحثة فى الأرض ، والأرض لاتخرج أفلاذها إلا لمن يبحث عنها ، ولأجل خيرات الأرض من فحم وحديد وبترول وذهب وجواهر وبلاتين وألومنيوم قامت الحروب العظمى فى أنحاء العالم . والباحثون عن هذا والحائزون له هم الأوروبيون والأمريكيون مع أنه لم يكن فى كتابهم قول الحق سبحانه : « اضربوا فى مناكبها وكلوا من رزقه وإليه النشور» .

فأين مناجمنا وأين معادننا وهل نصل إليها بدون تعلم علم

طبقات الأرض (چيولوچيا) الذى له مدارس خاصة فى أوربا ، وكان لأجدادنا المصريين القدماء مناجم ذهب وأحجار كريمة فى جنوب مصر الشرقى وغربيها وهى الآن مهجورة ، والأجانب هم الذين اكتشفوا البترول فى بلادنا وأخذوا امتياز استخراجه فهو يدرّ عليهم النضار ويبيعونه لنا غالياً ، ورجالنا يعملون أجراء فى تلك الآبار ، وكانت حرب العراق لأجل آبار الزيت حتى وصف بعض الساسة الحرب العظمى بأنها « حرب الزيت » ، ووضعت إنجلترا يدها على العراق لا لتعيد مجده القديم لعهد بابل وآشور ولا لعهد بغداد والعباسيين، بل لتستخرج البنزين والبترول وتمد الأنابيب من الآبار إلى شواطىء البحار ، ومن هنا نشأت فكرة الحلف العربى واتحاد العرشين فى سوريا والعراق [١].

إعانة علماء الرسوم للحكام المستبدين :

قلنا إن مسلك علماء الرسوم من أسباب ضعف المسلمين[٢]. فقد أعانوا الحكام المستبدين قديماً وحديثاً فى سائر أنحاء الشرق الإسلامى على الشعوب الإسلامية

---

(١) عن الحلف العربى وأهدافه ، انظر كتاب المؤلف « حياة الشرق دوله وشعوبه وماضيه وحاضره » ، ص ٣٢٥ - ٣٤٨ دار إحياء الكتب العربية ، القاهرة ، سنة ١٩٣٢ .

(٢) انظر صفحة ٥٧ - ٦٠ من هذا الكتاب .

بأن انضموا إليهم وتزلفوا إلى مواطىء أقدامهم وتقلبوا فى نعمائهم وضربوا بالمخالب فى موائدهم وباللاعق فى حلوائهم وأفتوا لهم بمقاومة كل ناصح والقضاء عليه كما رأينا فى تاريخ ابن رشد ومحاكمته وفى تاريخ الشيخ محمد عبده واضطهاده ، وكان زعيم الثورة الأخيرة التى قامت فى الكرد ضد تركيا الحديثة رجلاً يدعى الشيخ أسعد وهو شيخ طريقة صوفية فقبض عليه وحوكم وحكم عليه بالموت جزاء جريمة الخيانة العظمى لوطنه الأكبر !! ... فلما دنا وقت العقوبة فيه بالإعدام ، انخلع قلبه رعبا فمات بين يدى الجلاد كما هلك بعض أولاده ودراويشه ، ثم انكشف أنهم آلة فى أيدى أعداء دولتهم وذلك بظهور سبعة ضباط أجانب قتلوا عن آخرهم ولم ينبس أحدهم ببنت شفة ولم يبوحوا بسرهم ولم تحتج دولتهم ولم تشهر غضبها .

والثورة التى قامت فى بلاد الأفغان ضد الملك أمان الله كانت باسم الدين ظاهراً ، مع أن وراءها الكولونيل لورانس والبنادق والليرات الأجنبية وقد أسفرت عن سيادة لص من قطاع الطريق (نادر خان) وهو ابن السقاء الذى عاش لصاً ومات لصاً ولكن ذهب بدولة إسلامية مستقلة[١] .

---

(١) فى سنة ١٩٢٩ استولى نادر خان على السلطة فى أفانستان وقتل الملك أمان الله ومؤيديه، وفى سنة١٩٣٢ اغتيل الملك نادر خان وورث العرش الملك محمد ظاهر شاه الذى حكم البلاد ٤٠ سنة حتى قام داوود خان سنة ١٩٧٣ بانقلاب عسكرى وإعلان الجمهورية فى أفغانستان (د.ل.ج).

العلماء وتقويم الحكام :

وفى الحق إن روح الإسلام يقضى على هؤلاء العلماء بتقويم أود الأمراء والملوك وهدايتهم ودعوتهم إلى الإصلاح كما صنع المرحوم الشيخ حسن الطويل فى الفترة القصيرة التى التقى فيها بسلطان المسلمين ، وكان العلماء فى الدول الإسلامية الأولى بمثابة الرقباء على الملوك ، يرفعون أصواتهم عند طغيان الدولة ويهيبون بالخليفة للرجوع إلى الصواب ، وبمرور الأيام للأسف جاء بعد هؤلاء العلماء خلف طالح اتخذوا العلم مهنة للتعيش به وجعلوا الدين مصيدة للدنيا فسوّغوا للفاسقين من الطغاة أشنع موبقاتهم وأباحوا لهم باسم الدين خرق حدود الدين ، هذا والعامة المساكين مخدوعون بعظمة عمائم هؤلاء العلماء وعلو مناصبهم وكبر بطونهم وجمال ثيابهم وإرسال لحاهم ، فظنوا فتياهم صحيحة !!

ولنضرب مثلا لذلك فى العهد الحديث ، فإن فرنسا أرادت أن تعمم الجنسية الفرنسية على المسلمين فى تونس ، فقاومها التونسيون واحتجوا على ذلك ، فأرادت أن تستعين بفتوى من علماء جامع الزيتونة ، فانتهز هؤلاء العلماء تلك الفرصة وطالبوا الحكومة بزيادة مرتباتهم وهددوها بالإفتاء ضدها ! ... ولم يخطر ببالهم أن يفتوا فى سبيل الحق والوطن .

واقترحت فرنسا على علماء سوريا أن يمضوا برقية إلى

جمعية الأمم ينكرون بها عمل المؤتمر السورى الفلسطينى المطالب باستقلال سوريا وفلسطين ، فأمضاه منهم عمائم مكورة وطيالس محررة مجررة ورقاب غليظة وبطون عظيمة !

وكذلك أفتى مفتى فاس بأن إلغاء الشرع الإسلامى فى طائفة البربر ليس بإخراج البربر من الإسلام !

ولما أراد الفرنسيون رفع الشريعة الإسلامية من بين البربر ، وجدوا رجالاً من العلماء والخواص والأئمة يعينونهم فى ذلك ، بل كان هؤلاء أشد تعصباً لقضية رفع الشريعة الإسلامية من بين البربر من الفرنسيس أنفسهم ! ... وقد قام حاكم فاس المغربى وقد غاب عنى اسمه بجلد مائة شاب من أهل فاس بالسياط لأنهم اجتمعوا فى جامع القرويين وأخذوا يرددون دعاء « يالطيف الطف بما جرت به المقادر ولا تفرق بيننا وبين إخواننا البرابر !! ».

هذه فرنسة « اللادينية » التى تريد أن تنقل أمة بأسرها من الإسلام إلى النصرانية !

أقول لقد ضل هؤلاء العلماء وأعانوا الظالم سواء أكان من البلد أو أجنبياً عنها لأنهم أمنوا جانب الأمة ، فلو علموا أن وراءهم أمة يخشونها ، ماتجاسروا على الاتجار بدينها بعد الاتجار بدنياها .

أفتظن أن هؤلاء العلماء يجهلون نيات الظالمين ؟

أليس كلهم مطّلعين على نيات أوربا وعلى مراميها سواء أكان فى العراق أو فى مصر أو فى سوريا أو فى البربر حيث يوجد جيش من القسوس والرهبان والراهبات يجوسون خلال بلاد البربر ويبنى الكنائس ويتصيّد اللقطاء والأيتام والفقراء وضعفاء الإيمان ؟

دعوى انتشار الإسلام بالقوة :

مع أن الإسلام فى أول عهده لم يستعمل القهر فى نقل الأمم من أديانها القديمة ، بل تركهم أحراراً وترك لهم خيار الجزية ، ولما كثر انتشار الإسلام وتحتم الختان ، كتب عمر بن عبد العزيز إلى عماله : « لقد بعث الله رسوله محمداً هادياً لا خاتناً ولا جابياً للضرائب » .

وطالما قامت فى العالم الأوربى ضد الإسلام تهمة انتشاره بقوة السيف ، وقد حاضر فى العهد الأخير اثنان من زعماء المسلمين أحدهما السيد عبد العزيز الثعالبى ، فأثبتا أن الإسلام كان يدخل في قلوب الأمم باللين والقدوة الحسنة والترغيب دون الإرهاب ، وأن السيف لم يستعمل إلا فى الحروب السياسية لا ضد النصارى ولا اليهود .

وقد عثرنا على نص فى كتاب « حياة عبد الحميد سلطان

تركيا » تأليف سير إدوين پيرس طبع لندن سنة ١٩١٧ عند كونستابل وشركاه فى ص ١٥١ يؤيدنا ، وهو :

« مهما يكن السيف قد ساعد الإسلام على الانتشار فى القرون الأولى ، فإن انتشاره العظيم ناشىء عن الأفكار التى انطوى عليها ومقاومته للأعمال الفاسدة التى كانت جارية فى بعض الفرق المسيحية الشرعية ، وليس هذا الانتشار ناتجاً عن القوة والإرهاق ، فقد انتشر الإسلام انتشاراً واسعاً فى إفريقيا وفى بلاد العرب بجهود المهديين والسنوسيين رغبة منهم فى الرجوع بالإسلام إلى البساطة الأولى للمعتقدات الإسلامية».

إن هذا المؤلف ليس صديقاً للإسلام ولكنه أقر بالحقيقة وقد نشر رأيه هذا قبل محاضرة السيدين السالفى الذكر بأربعة عشر عاماً .

من أسباب ضعف المسلمين فقدانهم الحماسة الإسلامية الأولى وعدم البذل والتضحية :

ومن أسباب ضعف المسلمين فقدهم تلك الحماسة الإسلامية الأولى ، فأين حالة المسلمين الآن من حالة أسلافهم الذين كانوا يتهافتون على الموت لإحراز الاستشهاد ، وقد فقدوا الآن هذه الحماسة التى كانت عند آبائهم وتخلق بها أعداء الإسلام الذين لم

يوصـهم كـتـابهم بهـا من أوربيين وأمـريكان ، وقـد ظهـر ذلك فى الحرب العظمى وكان مبلغ مفاداتهم بالنفائس وتضحيتهم للنفوس فى الحرب العامة فوق تصور عقول البشر !... ولا ننسى أن الإنجليز خرجوا عن معظم ثروتهم القومية فى مقاومة نابليون حتى انتصروا عليه .

وخطب لويد چورچ فى سنة ١٩١٦ عندمـا كـان حظ أوربا والحلفاء فى ميزان القدر فقال لقومه : «لاتؤملوا أن تنتصروا بغير تضحية ، وانتظروا أن تصهروا فى بوتقة الحرب كل ما لديكم من ذهب وفضة ونحاس لعلكم تنصرون !» .

ومع ذلك لم تكن أوربا مقصرة فى البذل ، فقد فقدوا أكثر من عشرة مـلايين رجل وألوف الملايين من الدنانير ، وكتـاب ريماركه الألمانى الذى أحدث ضـجـة ، يصـوّر بعض وقـائع الحـرب أصـدق تمثيل .

ولم يقف البذل عند حياة الأفراد ، بل تعدّاهم إلى المال كما قلت ، فإن إنجلترا أنفقت سبعة آلاف مليون جنيه وفرنسا بذلت مـيليـارين وألمانيـا ثلاثة مليـارات وخسـرت روسـيا رجـالهـا ومـالهـا ودولتها ودينها وأنظمتها ووصلت إلى المجاعة فالثورة الحمراء.

ولكن المسلمين لم يضـحّـوا بأحـد إلا مـرغـمين ولم يحاربوا إلا فى صفوف سادتهم من المستعمرين ولم ينفرد

بالتضحية إلا الشعب التركى ، فقد وجد منهم من بذل ثلث ثروته فى حربهم ضد اليونان التى كانت تعينها إنجلترا ، ولما فعلوا ذلك وضحّوا بالمال والرجال ، انقلبوا بنعمة من الله وفازوا وحرروا أنفسهم واستقلوا وارتفعوا بعد أن كانوا هانوا وعزّوا بعد أن كانوا ذلوا .

ولا يمكن أن تحتفظ أمة باستقلالها بدون بذل وتضحية وحتى الزكاة المفروضة لا يؤديها معظم المسلمين فى بقاع الأرض وكان العلماء - تولاهم الله بما يستحقون - قد أفتوا لبعض الأغنياء فى مصر أنهم يحتالون فى الزكاة ، فإذا أخرج الغنى زكاته وكانت بالغة مائة جنيه أو مائتين مثلاً ، فإنه بفتوى العالم يدفنها فى صرة فى وعاء مملوء قمحاً ثم يقدمها للفقير ، فإذا همّ بحملها وهو يظنها قمحاً ولا تحوى ذهباً ساومه على شرائها فيستردها منه بقروش معدودة ؟!!

وهم - أى العلماء - يظنون أنهم يخدعون أمة وما يخدعون إلا أنفسهم وليس ينطلى على الله بحال .

وليس البذل قاصراً فى أوربا على الحروب والشدائد ، فإن الأوربيين والأمريكان يبذلون ثروات طائلة فى سبيل المشروعات العامة كالتبشير وفى أنواع الخيرات ، ولو كانت الأعمال العامة

تعود عليهم وعلى المجموع بالخير ، فهم لايتبرعون لها إلا فى الندرى .

فكيف يطمع المسلمون فى سلطان يشبه سلطان الأوربيين بدون إيثار ولا غيرية ولا بذل ولا تضحية ولا فقد شىء من لذائذهم؟

إن أوربا سادت العالم بالأخلاق والمبادىء .

أعداء المسلمين هم المسلمون أنفسهم :

وعندما قام الأمير محمد عبد الكريم لمحاربة بعض دول أوربا ليذود عن حياض وطنه ، قامت من المسلمين فئة يقاتلون الريفيين بأشد مما يقاتلون به الأجانب كأن بينهم وبين إخوانهم وجيرانهم ثأراً قديماً ، وتألبوا عليه قبائل وافرة العدد شديدة البأس ومالأوا الفرنسيس والإسبانيول على أبناء ملتهم ووطنهم تزلفاً إليهم وابتغاء الحظوة لديهم وسعياً وراء الدرهم والدينار !... مع أن الأوربيين ينظرون إليهم وهم يخونون أبناء جنسهم بعين الازدراء والاحتقار ويسوقونهم إلى الموت كما تساق الشاء والأنعام !

وقد جرى ذلك فى مصر عند الاحتلال ، فتآمر بعض الأعيان والباشاوات وعرب الصحراء الشرقية وأدخلوا الجيش الأجنبى بالغدر والخيانة !!

وجرى مثل ذلك فى سوريا يوم الثورة على فرنسا ، وجرى مثل ذلك كثير فى بلاد إسلامية فى شمال إفريقا فى أوقات مختلفة .

لقد صدق إذن ذلك الملك العربى الذى اقتبسنا نبذة من كلامه[١] .

وقد أصبح الفساد إلى حد أن صار أكبر أعداء المسلمين هم المسلمون أنفسهم !... وإن المسلم إذا أراد أن يخدم ملته أو وطنه قد يخشى أن يبوح بالسر من ذلك لأخيه إذ يحتمل أن يذهب هذا إلى جانب الأجانب المحتلين فيقدم لهم فى حق أخيه الوشاية التى يرجو بها بعض الزلفى ، وقد يكون أمله فارغاً .

وقد روى الأمير شكيب أرسلان **عن الملك ابن سعود أنه قال : « ما أخشى على المسلمين إلا من المسلمين ، ما أخشى من الأجانب كما أخشى من المسلمين !!»**.

فإنه ما من فتح فتحه الأجانب من بلاد المسلمين إلا كان نصفه أو قسم منه على أيدى أناس من المسلمين ، منهم من تجسَّس للأجانب على قومه ، ومنهم من سلَّ لهم السيف فى وجه

---

(١) انظر صفحة ٧٠ ، ٧١ من هذا الكتاب .

قومه وهدر فى خدمتهم دم قومه . ولعل بعض الأمم تستثنى الآن من هذا العيب الفظيع كالأفغان والنجديين وبعض المصريين الذين ارتقت تربيتهم السياسية كثيراً عن ذى قبل .

طلائع جيوش المستعمرين :

لقد فندنا دعوى اللادينية التى نسبت إلى أوربا كذباً ، وأقمنا الأدلة من احتفال چوفر ومن قيام فرنسا بتنصير البربر مختفين وراء ظهير أصدره سلطان مراكش وحكومة المخزن [١] ، وكل العالم يعلم كيف يصدر الظهير برغبة الدولة الحاكمة .

والهولانديون نصّروا مائة ألف من أهل چاوه وخطب أحد نواب هولاندا فى البرلمان الهولندى وقال : إننا فزنا بتنصير مائة ألف مسلم .

ولفرنسا وإنجلترا وأمريكا وإيطاليا مئات ألوف المبعوثين والمبشرين فى أنحاء العالم الشرقى وهم يدرون عليهم ملايين الجنيهات فى كل عام وينفقون على مدارسهم وملاجئهم ومستشفياتهم ليخرجوا المسلمين من ظلام الإسلام إلى نور

---

(١) عن الظهير المراكشى ، انظر كتاب المؤلف « حياة الشرق » ، المرجع السابق ، ص ٧٤ ، ٧٥ ، ٣١٤ .

النصرانية ، وماهم فى الحقيقة إلا طليعة جيوش المستعمرين والتجار والفاتحين من لصوص أوربا الذين يسعون لهدم القوميات ليتمكنوا من سلب الشعوب الشرقية أموالم وأوطانهم .

اتهام المسلمين بالتعصب :

ومن العجب العاجب أن هؤلاء الأوروبيين الماكرين يتهمون المسلمين بالتعصب الدينى [١] وينبزونهم بلقبه وينتحلون لأنفسهم التساهل والتسامح فى الدين !

ونرى الشبان المسلمين المتعلمين يخشون أن تلصق بهم تلك التهمة وينطبق عليهم ذلك اللقب ، فتراهم يتظاهرون باحتقار دينهم ويتهاونون فى مبادئه الأخلاقية حتى يقال عنهم إنهم أحرار الفكر ومتسامحون ومتنورون ومجددون وحديثون !! ... وأنهم ليسوا بجامدين ولا متعصبين .

وإذا رجعت إلى تلك الفئة - فئة أحرار الفكر فى الشرق الإسلامى - وجدتهم ينقسمون إلى ثلاثة أقسام :

القسم الأول قسم المنورين الذين اتخذوا حرية الفكر عن عقيدة وعلم وسعة اطلاع فى الفلسفة والتاريخ والأدب وهؤلاء

---

(١) انظر ص ٦٩ من هذا الكتاب .

ليسوا ملحدين ولا هراطقة ، ولكنهم مؤمنون فى غير تعسف ولا ضيق فكر ، وهم متسامحون حقاً ومثلهم كمثل علماء الصدر الأول فى الإسلام ، ومنهم بعض الكتاب والمصلحين وهم يتبعون قول النبى «الحقيقة ضالة المؤمن يلتقطها أنّى وجدها » ، لا يقيدون أنفسهم بشىء من القيود التى تخمد صوت العقل وتعمى البصيرة.

والفريق الثانى فريق الشبان أهل العلم الناقص وهم أنصاف العلماء ، وهؤلاء لجهلهم يقلدون أساتذتهم من الأجانب والمستشرقين ويحاولون أن يظهروا بمظهر حرية الفكر تقليداً لا اعتقاداً ، وهم مسلمون حقيقة ولكنهم دخل فى روعهم الخوف من تهمة التعصب، ثم هم لا يريدون أن يظهروا بمظهر غير «عصرى»!! ويعتقدون أن المظهر العصرى هو مظهر حرية الفكر والتخلص من العقائد ، مع أنهم يرون بأنفسهم أن الأوربيين لا يهملون دينهم ولا يحتقرونه ، وهؤلاء معذورون لجهلهم وتجب هدايتهم .

والفريق الثالث وهو الفريق الخطر وأيضا على أوفر جانب من التعليم وقد تظاهروا بالإصلاح وهم لايريدون إصلاحاً إنما يريدون الإباحة المطلقة والتمتع بلا قيد ولا شرط ويعلمون أن فى ذلك ما يخالف دينهم ، كما أنهم يريدون المجاهرة بما يضمرون من زيغ وإلحاد ، ولما كان ذلك كله ضد تعاليم الأديان ، فقد عادوها وعادوا

أهلها إن لم يكن جهاراً وعلانية فسراً وخفية ، وهم يهونون من أمرها بأساليب شتى ليضعوا معتقداتهم فى النفوس وليحلوا ربطتها من الأفئدة والقلوب رجاء أن يخلصوا منها ومن قيودها التى حجزتهم عن شهواتهم وملاذهم ، وفى مقابل ذلك كله تراهم يزخرفون الباطل ويحببون الناس فيه باسم حرية الاعتقاد وحرية الفكر ليخدعوا بذلك الضعفاء ويشوشوا أفكارهم ، ومن ديدنهم تقليد الأوربى تقليداً أعمى ، ولكنهم لم يأخذوا عن الأوربى إلا أسوأ ما عنده ، وتركوا مكارم الأخلاق التى تحلى بها . وليتهم قلدوا أهل الغرب فى أخلاقهم ومبادئهم وصناعاتهم وفنونهم وصبرهم على الشدائد فى الحرب والسلم ، ولكنهم قلدوهم فى كل ما يؤدى بهم وبأقوامهم إلى الخراب والدمار ومايحط بشأنهم لدى الأمم الأخرى.

هذه هى الفرق الثلاث التى ظهرت فى العهد الأخير بحرية الفكر ، واحدة يجب الانتفاع بها وتشجيع أهلها والاستعانة بهم على رفع شأن الشرق ، والثانية يجب هدايتها وإرشادها ، والثالثة تجب محاربتها وتفنيد آرائها وإظهارها على حقيقتها حتى تسقط وتنزوى (١).

---

(١) كأنى بالمؤلف يتحدث عن دعاة حرية الفكر والإبداع فى هذه الأيام من أصحاب الفرقة الثالثة وهم يحملون الأفكار الزائفة والآراء الزائفة على محمل حرية الفكر وحرية الكلمة وحرية الإبداع ويدافعون عن دعاة هذه الحريات وأنصارها ، فما أشبه اليوم بالبارحة !! (ر.ل.ج).

الاستعمار وإندونسيا :

لقد احتفلت جمعية شبان أندنوسيا بعيد الفطر فى القاهرة فى سنة١٣٤٩ (يوم الخميس ١٩ يناير سنة ١٩٣١) واجتمع لفيف من جميع بلاد الشرق العربى والشرق الأقصى وخطبوا فقال أحدهم : إن إندنوسيا وهى مؤلفة من جزر چاوا وسو مطرة وستريت سنلمنت وعدد سكانها ستون مليونا تحكمها دولة أوربية لايزيد عددها عن خمسة ملايين وهى من أغنى بلاد العالم فى الحاصلات الزراعية الثمينة ، ولهامدنية قديمة مجيدة وأهلها يتوقون إلى الاستقلال والاتحاد مع الممالك العربية ، وهو لا يخفى أن الضعف قد استولى على المسلمين فى چاوه وملايو ، ولكن عندهم نهضة حديثة ويرغبون فى النهوض ويبذلون فى سبيل حريتهم كل مرتخص وغال.

وذكر خطيب آخر أن الإسلام دخل فى تلك البلاد بالحسنى والمحبة واجتذاب قلوب الجاويين بالموسيقى ، فقد أسس المسلمون الأول مسجداً وأحاطوه ببركة ماء وجعلوا فيه موسيقى يطرب لها الجاويون ، فكانوا يجتمعون زرافات ووحدانا ليسمعوا أنغامها وكان ثمن ذلك السماع أن يغتسلوا فى البركة ويتطهروا ثم يصلون فى المسجد ، وهذامن الأدلة الناهضة على أن الإسلام لم ينتشر بالسيف بل اكتسب ستين مليوناً بالموسيقى وجمال الأنغام ، ولكن

الأوربيين ينقلون بعض سكان ممالكهم من دين أجدادهم إلى الأديان الأخرى بالقوة والإرهاب .

حروب أهل الملة الواحدة :

على أن وحدة الدين لم تعد كافية فى استجلاب المحبة ، فإن التاريخ ملآن بحوادث الحروب التى تقاتل فيها طائفتان من ملة واحدة سواء أكانت فى الشرق أم فى الغرب عند المسلمين وعند غيرهم ، وهى تلك الحروب الداخلية التى ذهبت بريح كثير من الأمم.

وهاهم الصين أمامنا يتحاربون وهم من عقيدة واحدة ، والروس البيض والحمر يتحاربون وهم من ملة واحدة وجنس واحد، وفى صدر الإسلام تحارب على ومعاوية فى وقائع شتى وهم أقرب ما يكونون إلى عهد النبى وكلاهما مسلم صميم وأمير للمؤمنين !

وقد أظهرت لنا أوربا فى حربها الأخير أن هذا العصر عصر مصالح قومية لا عصر روابط دينية تستعمل فى الشر ، فإن ألمانيا المسيحية البرتستية حاربت إنجلترا وأمريكا وهما من جنسها السكسونى ومن عقيدتها ، كما حاربت فرنسا الكاثوليكية ضد النمسا والمجر وكلاهما كاثوليكى ، واتحدت ألمانيا مع تركيا المسلمة ضد الحلفاء المسيحيين ، وحارب المسلمون الهنود ضد الأتراك

المسلمين ، كما حارب الجزائريون والمراكشيون إخوانهم فى الدين من الأتراك والسوريين وغيرهم .

فلن تجنى فرنسا من تنصير البربر ولا هولاندا من تنصير الجاويين شيئاً ، وليس للمعتقدات الدينية قوة التضحية بالمصالح القومية ، والأوربيون يعلمون ذلك إنما هو أثر من آثار تعصّبهم وأحد أسلحتهم فى محاربة الشرق لا أقل ولا أكثر .

الخشية من نهضة شمال إفريقيا وإندونسيا :

وربما كان الفرنسيون يخشون نهضة عظيمة فى شمال إفريقيا ، فهم يتخذون لها عدتها من الآن بفصل جانب كبير من الأمة المراكشية ليجندوهم للحرب العالمية الآتية [١] وربما كان تجنيدهم وهم نصارى بقيادة القسيس والراهب أسهل من تجنيدهم وهم مسلمون ، كما أن هولاندا تخشى سيادة العرب فى إندنوسيا وچاوه وسنجابور وسومطرة وغيرها لأنه يقال إن العرب فى جزيرة سنغافورة أعظم ثروة من جميع الأجناس التى تساكنهم حتى من

---

(١) كتب المؤلف هذا الكلام قبل الحرب العالمية الثانية بحوالى ثمانى سنوات ، وهو ما حدث بالفعل أثناء هذه الحرب بتجنيد فرنسا للمراكشيين والتونسيين للقتال فى صفوفها فى هذه الحرب (ر.ل.ج).

الإنجليز أنفسهم بالنسبة إلى العدد .

فلو افترضنا صحة هذا الخبر ، كان للعرب شأن فى تلك البلاد يذكر ، إذ ليس بعد المال والعلم والدين واللغة إلا الاستقلال المحتم . **وهولاندا وإنجلترا وفرنسا وهى الأمم المستعمرة الآن ، لاتنكر أن فى العالم الإسلامى حركة شديدة ومخاضاً عظيماً شاملاً للأمور المادية والمعنوية ويقظة جديرة بالإعجاب.** وقد انتبه لها الأوروبيون وقدروها، ومنهم من يتوجس منها خيفة مغبتها .إلا أن هذه الحركة الأمامية التقدمية لم تصل بالمسلمين بعد إلى درجة يساوون بها أمة من أمم أوروبا .

رابطة الشعور بالألم :

وفى تلك الحفلة نفسها التى أقامها الأندنوسيون خطب شاب من البربر وتكلم بعربية فصحى وأسال العبرات بوصفه مظالم الاستعمار وتضييق الخناق على بنى قومه ، وقد تأثر الحاضرون حقاً تأثراً عميقاً **وشعروا بأن بين تلك الأمم الشرقية غير رابطة اللغة والعادات والدين ، توجد رابطة الألم والظلم الواقع على الجميع وهى من أشد الروابط !**

وهذا الشعور الفياض بالألم هو الذى دفع إلى اجتماع تلك العناصر المختلفة لإظهار عواطف الحنان والرحمة وهو الذى سوف

يكون مقدمة للاتحاد التام بين الجميع . فإننا منذ عشرين عاماً - وبصفة خاصة - لم نكن نسمع بتلك الشعوب إلا فى الكتب والصحف ، وإن سمعنا بها لم تكن أوتار قلوبنا لتهتز لحالتها كما هى الآن ، فإنه عندما وقعت حروب البلقان وحرب طرابلس كان شعور العالم العربى ضعيفاً ، وقام فى مصر كاتب شهير يثبط همة المكتتبين والمتطوعين ويقول فى « الجريدة » التى كان شعارها كلمة ابن حزم : « ما لنا وللطرابلسيين ؟ نحن مصريون » . ولم يجد من يسكته أو يرد شكيمته .

ولكن بعد الحرب العظمى تبدلت الأحوال ، وعندما وقعت حرب تركيا واليونان شعر الجميع بالميل وحب المعونة والمناصرة نحو تركيا الحديثة لأنها كانت أمل الإسلام وقلبه الخافق والدولة التى تلتف حول علمها أمم كثيرة .

وكذلك كانت الحال فى ثورة عبد الكريم فى الريف ضد فرنسا وأسبانيا ، ولكن المعونة المادية كانت قليلة . ولو كان عبد الكريم أوروبياً إذن لتهافت الأوربيون على مناصرته بالمال والرجال حتى ينتصر أو يفنى خصومه .

ولكن هذه نهضة جديدة ولابد من نموها ومساعدتها بنشر الأفكار الملائمة لها وتقويتها حتى تمر من دور الطفولة إلى دور الرجولة الكاملة .

الجبن والهلع من أسباب ضعف المسلمين :

ومن أسباب ضعف المسلمين فى الوقت الحاضر الجبن والهلع بعد أن كانوا أشهر الأمم فى الشجاعة واحتقار الموت حتى فى الدفاع عن أنفسهم وعن أوطانهم وعن حرماتهم وعن شرفهم ، مع أن الأوربيين المعتدين لايهابون الموت فى اعتدائهم ، ونحن نشهد الغايات البعيدة التى يبلغها الإفرنج فى احتقار الحياة والتهافت على الموت فى سبيل الوطن والقومية . وقد وقر فى أنفس الأوربيين أن المسلمين جبناء ويائسون وقانطون ، أليس هؤلاء هم المسلمون الذين دوخوا ممالك أوربا ووصلوا إلى أسوار ڤينا وملكوا جنوب أوروبا وغربها إلى پواتييه واستولوا على جبال سويسرا وبحيرة كونستانس فى قلب أوربا وأسسوا دولة عربية صغيرة بقيت مائة عام فى بلاد البيد مونت وماوالاها ، وقد زرت مع لفيف من أصدقائى قرية سويسرية أسسها العرب لايزال اسمها دليلاً عليها وهو Sarazin والسرزان هم العرب ، وقد حكى لى الأستاذ بروشيه السويسرى - وكان معى فى تلك السياحة - أن عاداتهم وأخلاقهم فى الحب والزواج والأفراح لاتزال عربية محضة .

الدين ليس معياراً للتقدم أو التأخر فى حياة الأمم :

وإننا نترك الدين جانباً ولا نجعل الأديان معياراً للتقدم أو التأخر وإن التقدم والتأخر فى حياة الأمم لهما أسباب وعوامل متراكمة ترجع إلى أصول مختلفة سنبينها ، فإذا اجتمعت تلك الأصول وتراكمت فى خير أو شر تغلبت على تأثير الأديان والمعتقدات وأصبحت فضائل أقوم الأديان عاجزة بإزاء شرها ، كما أصبحت معايب أسخفها غير مؤثرة فى جانب خيرها ، وليس من الإنصاف فى شىء إدخال الأديان فى هذا المعترك وجعلها مقياساً للتقدم والتأخر ، وإن هذا العصر - كما أسلفنا - ليس **عصر الأديان بل هو عصر القوميات وعصر المصلحة لا عصر العبادة وحدها، وأن النهضة لاينبغى أن تكون دينية، بل يجب أن تكون قومية ووطنية كما هى نهضة اليابان وأوربا وأمريكا .**

نعم نحن محتاجون إلى أخلاق وإلى تربية روحانية ، ولكن هذا لا يقتضى أن نخلط كل شىء بالدين ، **بل يجب أن يكون الدين وسيلة للتقدم لا أن يكون غاية ننتهى إليها .**

وهؤلاء المتفيقهون فى الدين الذين قصروا همهم عليه لا يصلحون لشىء آخر فى الدنيا ولا يرون أبعد من أنوفهم وليس هذا المقصود من دين الإسلام الذى حث على العلم والفكر والنظر فى

ملكوت الأرض والسماء ودرس الفلك والأجرام العلوية .

ماذا نريد من تعاليم الدين ؟ :

نريد من تعاليم الدين ما يصون ضمائرنا ووجداننا ويحمينا من الإباحة وعبادة الجسد واتباع الأهواء والشهوات . ثم نحن بعد ذلك نسعى للمجد والقوة والتقدم ، لأن الدين فى الواقع هو ثروة خلفها لنا أجدادنا وبجانبه ثروات أخرى لاتقل عنه قيمة فى التركة كالوطن والأمة والتاريخ والثقافة والأخلاق والتقاليد ، وهذا كله الذى يخلق كيان الأمم وفى سبيله تبذل الأرواح والمهج ، ولأجله يسعى كل شعب لأجل الحرية .

ومادام الدين لا يناقض المصلحة القومية فهو على الرأس والعين ، ومادام لا يناقض العلم الحديث فهو فى أعز مكان من قلوبنا وأفئدتنا ، ومادام الدين يصلح لكل زمان ومكان ويصلح للتطور والترقى فأنعمْ به وأكرم ، ومادام الدين لايخالف العقل فما أعظمه وما أجمله ! وقد جاء نص بأنه إذا اختلف الدين والعقل فالواجب اتباع العقل ، وعلى هذه الصورة نحن نفهم الإسلام ويفهم الشرقيون .

عصر القوميات :

قلنا إن هذا العصر هو عصر القوميات [١] ، وواجب كل أمة يقضى أن تحتفظ بقوميتها وأن لاتفرط فى شىء من مقومات تلك القومية ، وإن نصحنا به للأمم الشرقية ، فإنما ذلك لأنها أشد احتياجاً إلى المحافظة على قومياتها من أوربا التى تكونت ونضجت بل واكتهلت . ومع هذا فلننظر إلى أوربا فنجد كل أمة منها تأبى أن تندمج فى أمة أخرى ، وقد عرفنا أيرلندا وقد احتل الإنجليز جزيرتها سبعة قرون ولم يتحول الأيرلنديون عن قوميتهم ولغتهم وعاداتهم وتقاليدهم حتى فازوا باستقلالهم القومى .

وأمة الفلامند فى بلجيكا لها قوميتها ولغتها وتمثيلها فى البرلمان البلچيكى ، وتحتوى سويسرا الصغيرة على ثلاث قوميات ألمانية وفرنسية (روماند) وإيطالية ، والأغلبية الساحقة للألمان والقلة الضئيلة للطليان ، وكلهم سويسريون قلباً وقالباً ، وقد اشتركوا فى محاربة أعدائهم سواء أكانوا من الألمان أو الفرنسيين أو الطليان ، ولكن كل فريق من الثلاثة محافظ على لغته وقوانينه ونزعاته وهى التى تكون قوميته ، وفيهم الكاثوليكى والبروتستنتى وهذا كله لم يمنع اتحادهم فى المصالح السياسية ويعيشون فى مملكة واحدة .

---

(١) انظر صفحة ١٠٠ من هذا الكتاب .

وقد أدت الحرب العظمى خدمة كبرى للإنسانية فظهرت بعدها جنسيات لم يسمع بها التاريخ لأنها كانت مخنوقة ومضغوط عليها ومندمجة بالقوة فى أمم قوية .

ولكن عندما تفككت أواصر تلك الأمم القوية مثل روسيا والنمسا وألمانيا ظهر التشيك والمجر والبولونيون والإستونيون والكرواتيون ، ومنهم أمم لاتزيد عن مليونين ولكنهم حافظوا على لغتهم وآدابهم وشخصيتهم قروناً طويلة . فما بالك بالأمم الشرقية المؤلفة من مئات الملايين وأصغرها أكبر من سويسرا وأعظم من فنلندا ؟؟

الأخذ بماهو الأصلح من المدنيات :

نحن لا نندمج فى الشعوب الأخرى ولكننا ندمج الصالح من مدنياتها فى حياتنا القومية ونصبغها بالصبغة الشرقية كما فعل اليابان ، لقد قلدوا أوربا فى قوتها وعلمها وسياستها وتبنوا كل ماهو صالح من مدنيتها .

لقد كانت نهضة اليابان عظيمة جداً لأنها نفت عن آسيا فكرة الموت التى أراد أن يلصقها بها الأوربيون ، ليس عن آسيا فقط ، بل عن كل الأجناس المخالفة للجنس الأبيض الذى انتحل سيادة العالم .

فإن هذا الشعب الآسيوى وذلك الجنس الأصفر أهل تلك

العقائد الوثنية ، وهؤلاء الأقزام الذين اشتهروا بالدمامة بمجرد إرادتهم وعزيمتهم ، عرفوا أن يختاروا ماهو الأصلح لهم من مدنية أوربا مع الاحتفاظ باستقلالهم وهويّتهم ومدنيتهم وآدابهم وثقافتهم، وحتى تغلبوا على شعب من أعظم شعوب أوربا وأقواها .

اهتمام الباحثين فى شئون الشرق بالدين الإسلامى :

لسائل أن يسأل لماذا كان الباحثون فى شئون الشرق الإسلامى أو العربى يجعلون للدين الإسلامى هذا الشأن فى مباحثهم ؟

وهذا سؤال وجيه جداً ، لأن الباحثين فى شئون أمم أوربا لايجعلون للدين المسيحى هذا النصيب من الاكتراث ، وإن كان هوستون شمبرلن فى كتابه « أسس القرن التاسع عشر » قد أفاض فى تأثير العقيدتين المسيحية والإسرائيلية فى تقدم العالم ، كما أن رئيس مجلس الريشتاج الألمانى صرح من أعلى منبر ذلك المجلس منذ سنتين أو ثلاث أن ثقافة ألمانيا هى ثقافة مسيحية . وغيرهما كثيرون ممن يجعلون للدين المسيحى مكانته فى شئون أوربا وأمريكا .

ولكن عندنا فى الشرق الأمر أعظم من ذلك والبحث فى الإسلام ملازم للبحث فى شئون الأمم التى تدين به . والسبب

ظاهر جلى وهو أنه قبل ظهور الإسلام لم تكن هناك مدنية عربية بالمعنى الصحيح ، فالمدنية الشرقية التى سادت نصف الكرة الأرضية على التقريب كانت عائدة فى مجملها إلى الديانة الإسلامية التى ظهرت منذ ألف وثلاثمائة سنة فى الجزيرة العربية، وتحول العرب بفضل هذا الدين من الجاهلية إلى المدنية ومن الوثنية إلى التوحيد ومن الفقر والقسوة إلى الغنى والرحمة ، وفتحوا نصف العالم فى أقل من خمسين سنة ، وكونوا مع حداثة عهدهم بالبداوة دولاً قوية فى جميع الممالك التى فتحوها ، وبسرعة البرق حلت أنظمة الإسلام ودواوينه وقوانينه وشرائعه وآدابه محل المدنيات القديمة البائدة سواء أكانت فارسية أو هندية أو مصرية أو بابلية أو رومانية أو يونانية ، وتجلت تلك الأمة الفتاة عن قواد محنكين ووزراء مدربين وأمراء على أكبر نصيب من الحذق السياسى وولاة وعمال وقضاة فى غاية الكفاية ، كأن هؤلاء وأولئك ورثوا ملكاً قديما يرجع إلى مئات السنين ، حتى لايكاد الناظر إليهم يعرف فيهم أهل تلك البادية التى كانت لها مدنية محدودة مقصورة على الجزيرة وماجاورها ، ولم تكن تلك الجزيرة تعرف الاستقلال ولا العز الصحيح إلا فى عهد الإسلام.

هذه الظاهرة السياسية الاجتماعية التى حوّلت قبائل متفرقة متطاحنة إلى أمة سيدة قاهرة فاتحة منظمة ممدّنة هى التى

أدهشت العالم وجعلت الباحث فى الأمم التى دانت بالإسلام وخضعت لرايته لا يستطيع إغفال الدين أو التقليل من شأنه ، لأن القرآن ليس مجموعة تعاليم خلقية أو بيان لأنواع العبادات فحسب، ولكنه فوق هذا وذاك قانون حضارة وقانون حرب وسلم وقانون مدنى وقانون تجارة وعقوبات وبحر زاخر فى العلوم والأفكار والمبادىء النافعة ، يجد فيه الحاكم والمحكوم والشارع المنظم والمصلح كل أدوات البناء اللازمة لتشييد الأمم وتحصينها وحفظ كيانها .

هذا هو الذى يلجئنا إلى الكلام عن الدين فى أثناء البحث فى أحوال المسلمين السياسية والاجتماعية .

الشرق والاستعمار الأجنبى :

فى تاريخ اليونان القديم أن قورش ملك الفرس العظيم سار بجيوشه الجرارة لفتح بلاد اليونان وبلغ فعلاً شواطئها ، ولكن بلاد اليونان صدّته عن سواحلها ويرجع الفضل فى ذلك إلى ثمستوكليس الذى قهر الفرس فى موقعة ثرموبولى ، وهى تعد إحدى الوقائع الحاسمة فى التاريخ [١] ، ولا يصفها المؤرخون

---

(١) انظر كتاب المؤلف «الأسلوب والخطابة» ، سنة ١٩٩٨، عالم الكتب ، القاهرة.

الإفرنج بأنها حاسمة فقط بل يصفونها بأنها الواقعة المنقذة التى لولاها لكان ذلك الشعب الشرقى المتوحش (يقصدون الفرس القدماء) قد قضوا على المدنية اليونانية وعلى مدنية أوربا المستقلة، وهم يعدون ثمستوكليس منقذ المدنية الأوربية وأن العالم المتحضر مدين له بحياته ونموه ونضوجه .

وكان من اليونان أنهم بعد أن اشتد ساعدهم وظهر فيهم فاتح قوى هو الإسكندر المقدونى أن سار فى الفتوح والغزوات إلى أن وصل إلى بلاد الفرس نفسها وقهرها ، ومازالت حملات الغرب تتوالى على الشرق من ذلك الحين ، فاليونان تبعهم الرومان فالأوربيون الصليبيون فالدول الحديثة التى حاربت الصين واليابان والهند ومصر ودولة آل عثمان وشمال إفريقيا حتى أمريكا نفسها فى سنة ١٨٦٧ ضربت بلاد اليابان بالقنابل ، ولكنها لحسن حظ اليابان كانت قنابل متيقظة لا مدمرة ، ولم يكن من مبدأ الأمريكان فى هذا الوقت أن يستعمروا وإلا لكانت اليابان اليوم فى عداد الجزر المملوكة لجمهورية الولايات المتحدة . **ولكن من يدرى لعل الأمريكان يخرجون من « الدنيا الجديدة » ليستعمروا أقطاراً فى الدنيا القديمة !!؟**

إذن الثأر قديم والخطة موروثة ، وأوربا تعتبر الشرق بأممه وأديانه وذكاء شعوبه عدوا طبيعياً لها ، فهى لاتريد

أن تتركه فى هدوء أو فى هناء ، وهذا الذى جعلها تتألب علينا سواء أكنا بوذيين أو مسلمين أو مسيحيين ، ولم تسكت عنا إلا فى وقت ضعفها وقوتنا عندما اشتد ساعد العرب فى أول الأمر وفتحوا جنوب أوربا، وعندما اشتد ساعد الترك وفتحوا الأستانة وتوغلوا فى النمسا والبوشنق (البوسنة) ، ولكن أوربا بعد ذلك أخذت تتحين الفرص متفرقة ومجتمعة لضربنا الضربة القاضية ، وما الحروب الصليبية إلا فصلا من فصول ذلك الكتاب الدامى ! وقد استمر البابوات من عهد أربانوس الخامس يحمسون الجيوش من متطوعين ومرتزقين ونظاميين ويدفعونهم لمحاربة الدولة العثمانية حتى حشدوا جيوش أوربا كلها ضد جيش واحد وهو الجيش العثمانى . وكان مركز الدولة العثمانية فى القرون الوسطى إبان قوتها كمركز ألمانيا فى الحرب الكبرى من حيث تألب دول العالم عليها ، فأية دولة واحدة يمكنها أن تصمد بجيشها المنفرد لجيوش قارة أوربا بأجمعها ، وهؤلاء لهم قوة تتجدد وعدد ينمو وجيش آل عثمان هو هو نفسه ؟

هجمة المغول على الشرق :

ولم يكن بلاء الشرق مقصوراً على الحروب التى أثارتها عليه أوربا بل إن الدول الإسلامية التى قامت قبل تلك الدولة (العثمانية) قد بليت بقبائل متوحشة شرقية وثنية قاسية القلوب لاتعرف المدنية

ولا العدل ولا تعدّ قبائل الشمال التى اجتاجت أوربا بجانبها شيئاً مذكوراً ، وهم هؤلاء الموغول الذين كانوا وحوشاً كاسرة فى صورة بشرية ، فإنهم لم يكونوا محاربين أو فاتحين أو مستعمرين بل كانوا مدمرين ومخربين ، وقد تمكنوا من محو عدة مدنيات من الوجود . فإن چنكيز خان لما هاجم بلاد الصين عقد مجلساً من زعماء جيوشه وبحثوا فى وجوب هلاك المدن وفناء الشعوب التى تسكنها ، وقد ظهر لهم أن سكان المدن ليسوا جديرين بالحياة لجبنهم وخناثتهم ورفاهيتهم وفسادهم ، ولم يكن هؤلاء الغزاة الباغين فى حاجة إلى المدن المشيدة لاكتفائهم بحياة الفيافى والقفار ، ولكنهم فى عهد جنكيزخان عدلوا عن تلك الخطة وبقيت فكرة الفناء الكامنة فى نفوسهم الشريرة إلى أن نفذها قائدهم الأفظع هولاكو (وكأن اسمه مشتق من الهلاك أو أن الهلاك مشتق من اسمه الكريه !)- فإنه لما بلغ بلاد العراق أشعل النيران فى مدنها وأعمل السيف فى أعناق سكانها وأمر بإتلاف أنظمة الرى والسقاية التى يرجع تاريخها إلى ثمانية آلاف سنة ، وبذلك قضى على المدنية الشرقية القديمة التى تعدّ أم المدنيات الغربية ، وأهلك الحياة فى المدن التى كانت آهلة بالسكان وحافلة بالثروة مثل أريدو ونيپور وبابل ونينوى وبغداد وبخارى وسمر قند وقضى على الحقول التى كانت عامرة بالأنعام والزرع منذ ثمانين قرنا ، فذهب

الخصب وحل محله الجدب والبوار والخراب والدمار ، وغاضت المياه التى كانت تستعمل فى الرى فتكونت منها برك ومستنقعات تجلب الأوبئة والحميات .

ولو لم يدرك الموت كيتبوغا اللعين قائد هولاكو فى فلسطين فى أواسط القرن الثالث عشر المسيحى (القرن السابع للهجرة) إذن لأحدث بمصر ما أحدثه إخوانه وأعوانه فى العراق ، ولما انقضت تلك المحنة التى وقع فيها الشرق الإسلامى وظن أنها لن تعود ، ظهر تيمور لنك الأعرج وهو من أحفاد چنكيز خان ، فعاد إلى الغزو والإتلاف والتدمير وأسس دولة الخراب من شمال الهند إلى سوريا ، وقد تفنن فى إعدام الخلق حتى كان يبنى من جماجمهم أهراماً ! ولما اغتال أصفهان شاد هرما قوامه سبعون ألف جمجمة ! وأرغم العثمانيين (وذلك قبل فتح القسطنطينية) ومصر على دفع الجزية .

الحروب الداخلية فى الشرق :

ولم يقف بلاء الشرق الإسلامى عند هذا الحد ، فإن الدولة العباسية قبل ذلك فى عهد المعتصم استخدمت جيشاً قوامه ستون ألفاً من الشركس وانشقت دولة الإسلام دويلات يحكمها أمراء الطوائف وظهر الفاطميون فى شمال إفريقيا على الأغالبة وكانت

للمسلمين جيوش تفتح جنوب أوربا حتى بلغت كولونيا فى ألمانيا وليون فى فرنسا ، فخذلها المعز الفاطمى وتعاهد مع أمراء فرنسا وإيطاليا وجمهوريات البندقية وچنوى وغيرها على الكف عن غزو بلادهم بالجيوش العربية ، وهكذا توالت الحروب الداخلية والانقسام فى سائر أنحاء الشرق حتى تفككت تلك الدولة العظمى وتمكن منها أعداؤها .

ولم يكن ذلك الاضمحلال قاصراً على الشرق ، بل إن دولة العرب فى الأندلس دالت وتحللت وكان بنو سراج آخر من حكموا وقهروا فاضطهد العرب وعذبوا وقتلوا أو طوردوا .

ليس للدين دخل فى سقوط دول الإسلام ، الأسباب السياسية والاجتماعية لسقوط الدول الإسلامية :

وهنا يجب أن نلاحظ أنه لم يكن للدين دخل فى هذا السقوط، بل إن وراء هذا السقوط أسباباً سياسية واجتماعية لاعدد لها وهى تعرض للمسلمين كما عرضت لأوربا المسيحية ، وكما عرضت للصين واليابان والهند الوثنية ولمصر الفرعونية ، بل إن هذه الأسباب أدخل فى باب السيوسيولوچيا وحياة الأمم وأعمار الحضارة وأطوار المدنيات منها فى أبواب الدين .

وما أصدق الأمير شكيب أرسلان حيث يقول فى ص ٩٢ من كتاب « لماذا تأخر المسلمون وتقدم غيرهم ؟» :

« إن لهذه الحوادث أسباباً وعوامل متراكمة ترجع إلى أصول شتى ، فإذا تراكمت هذه العوامل فى خير أو فى شر تغلبت على تأثير الأديان والعقائد وأصبحت فضائل أقوم الأديان عاجزة بإزاء شرها، كما أصبحت معايب أسخفهاغير موثرة فى جانب خيرها ».

فإن المصريين القدماء كانوا فى أوج مجدهم عندما كانوا يعبدون الهواء والماء والتمساح والقطة والثعبان ، وانحطوا عندما دانوا بالمسيحية وغيرها .

واليابان المتقدمة المنوّرة التى تعد من الدول العظمى وهى كذلك بحق - يعتقد شعبها وجود حصان مقدس يركبه الإله فلان !

فليس الإسلام (إذن) عنوان التأخر كما يدعى أعداؤه ، وليست الوثنية أو المسيحية أو الإسرائيلية عنوان تقدم كما يدعى أنصارها ، وكما مرت على دول الإسلام أدوار تأخر وانحطاط وظلام، كذلك مرت على دول الأديان الأخرى أدوار تأخر وانحطاط وظلام وربما كانت أبشع وأفظع مما وقع للدول الإسلامية .

فليس إدخال الأديان فى هذا المعترك السياسى والاجتماعى من العدل فى شىء ، وكما بليت الديانات القديمة من بابلية وآشورية وهندوسية ومصرية بالكهنة ، وكما بليت المسيحية برجال الكنيسة أمثال الذين نصبوا محاكم التفتيش وأعدموا جاليليه لقوله بدوران الأرض وأحرقوا ميشيل سرفيه لقوله بدورة الدم (أحرقه

كالقن فى چنيف) - كذلك بلى الإسلام ببعض المشايخ الذين كانوا حرباً على دوله وشعوبه .

ولكن هؤلاء المشايخ لم يتدخلوا فى شئون الدول والشعوب تدخل غيرهم ، لأن دين الإسلام لا يجعل بين الله وبين البشر وسطاء خير أو شر ، ولكنهم كانوا مرتزقين ويطمعون فى خير الملوك والمستبدين ، فكانوا يفتون الفتاوى ويبشرون بالآراء التى تخدم مصالح هؤلاء الطغاة.

ومن تلك الفتاوى الهادمة نظريات القضاء والقدر[١] التى اخترعت بحذافيرها وفسّرت تفسيراً يرمى إلى إخضاع الشعوب وإذلالها وإرغامها - من طريق الدين - على الرضا بأصناف الذل والعبودية والخنوع والسكوت عن المطالبة بحقوقها وقبول تسخيرها فى مصالح الملوك والأمراء .

وكان هؤلاء العلماء (وما أكثر هذا اللقب عليهم !) يعبدون الأشخاص ، فإذا ظهر رجل قوى ساعدوه على الحكم ومهدوا له سبل الاستبداد بالرعية وهرولوا إلى أعتابه وتزلفوا إليه بشتى أنواع التزلف .

---

(١) انظر صفحات ٣٩ ، ٥٣ ، ٧٣ - ٧٧ من هذا الكتاب .

فإذا تكلموا فى الخلافة فلا يعنون بوضع نظام يضمن حسن الاختيار ، ولكنهم يحصرون همهم فى تمجيد شخصية الرجل الذى يعطيهم ويغدق عليهم ، فكانت سياستهم الدينية مسخرة للأشخاص لا للأنظمة ، وفكرتهم متجهة نحو تمجيد الفرد الذى بيده الأمر سواء أكان إماماً أو خليفة أو أميراً .

ومازالت طائفتهم تقوم بهذه الوظيفة فى دول الإسلام إلى عصرنا الحاضر !

وقد وصف المرحوم إبراهيم المويلحى أعمال بعضهم مثل الشيخ أبى الهدى [١] والشيخ المظفر فى بلاط السلطان عبدالحميد ، وهم طبعاً الذين وصفوه بأنه ظل الله على الأرض وسلطان البرين وخاقان البحرين (!!؟) وأنالوه من المجد والسؤدد والأوصاف ما لم ينله أبو بكر الصديق ولا عمر بن الخطاب ولا عمر بن عبد العزيز !

آثار الحرب العالمية الأولى :

وإذا ذكرنا الحروب التى مرت بالدول الإسلامية سواء أكانت حروب فتح أو دفاع أو حروباً داخلية ، فلا نستهين بها ، فإن

---

(١) عن أبى الهدى الصيادى ، انظر كتاب المؤلف « مباحث فى التاريخ » ، ص ٣٧٢ - ٣٧٨ ، عالم الكتب ، القاهرة ، سنة ٢٠٠١ م.

الحرب فناء وهلاك وإفلاس فى الرجال والمال ودمار وخراب للعمران وهي شر مابليت به الإنسانية ولكنها من سنن الطبيعة التى أساسها التناحر وتنازع البقاء . ولنا مثل فى الحرب العظمى التى حدثت فى أوائل هذا القرن (١٩١٤ - ١٩١٨) ، فإن آثارها الصحيحة لاتزال خفية عنا وسوف تظهر حتماً فى الثلاثين عاماً المقبلة ، فإنها وإن كانت أظهرت من المخترعات مايعد بعضه نعماً، وإن كانت أيّدت فكرة القوميات التى شرحناها وحررت كثيراً من الشعوب المظلومة ، إلا أنها ساقت دول أوربا إلى حرف الهاوية التى تهلك فيها المدنيات .

فإن أوربا التى كانت تسير نحو الحرية والرخاء والتقدم الصحيح رغماً من تسلحها ، قد انقلبت إلى الرجعية العمياء وحدثت فيها أزمات البطالة وأصبح العاطلون يعدون بالملايين وتدهورت الأخلاق فى أنحائها تدهوراً فظيعاً امتد إلى الشرق ، ونحن فى مصر نشهد آثار هذا التدهور ، وقلت بركتها ونضبت خيراتها وندر الذهب فى أيدى الأمم وانحصر فى أيدى فئات قليلة من أرباب رؤوس الأموال الذين يتاجرون بالشعوب فى سبيل الغنى وتضخيم الثروات ، وامتدت تلك الأزمة المالية إلى أمريكا التى كانت تعدّ أغنى دول العالم ، فافتقر أربعة أخماس أغنيائها وارتبكت شئونهم .

وأظهر خطر تركته الحرب ، اختفاء الديمقراطية والأنظمة الحرة وظهور نظام الديكتاتوريات ، فظهر فى اليونان ديكتاتور «بانجلوس » وحل محله فنزيلوس وظهر فى بولونيا الجنرال بادوسكى وظهر فى إسبانيا بريمو دي ريڤيرا وفى إيطاليا موسوليني ، وفى كل من إنجلترا وألمانيا حركات ترمى إلى تعميم نظام الفاشست ، وضعفت الثقة فى الأنظمة البرلمانية وفى حكم الشعب ومحيت بعض المجالس النيابية من الوجود تمشياً مع نظام الديكتاتورية ، ولم يكن أحد يتوقع فى سنة ١٩١٤ مثل هذا الانقلاب ، وإن تكن بعض العروش قد انثلت وبعض التيجان قد سقطت عن رؤس ذويها (روسيا وألمانيا والنمسا وتركيا وبلغاريا والجبل الأسود والصرب واليونان) - إلا أن هؤلاء الملوك سقطوا لأنهم كانوا سببا فى الحرب أو اشتركوا فيها فعوقبوا بسبب الحرب وبسبب ضعفهم الشخصى .

فهذه الجوائح كلها قد أصابت دول الإسلام فى القرون الماضية ولاتزال تصيبها من جراء الحروب التى أعلنتها عليها أوربا من الغرب والقبائل المتوحشة من الشرق ومن الحروب الداخلية التى كان سببها الطمع وانحطاط الأخلاق .

فما ذنب الدين فى هذا ؟

إن الدين المسيحى دين تسامح ورحمة وحنان وتضحية فى سبيل خلاص البشر ودين فقر وزهد واشتراكية (راجع خطبة السيد المسيح على الجبل) ، ولكن هذا كله لم يمنع دول أوربا التى تنتسب إليه أن تكون فى حروبها واستعمارها وتغلبها من أقسى شعوب العالم على بعضها بعضاً وعلى الآخرين .

إبادة الاستعمار لبعض الأجناس :

خذ لذلك مثلاً من الاستعمار ، فإن الدولة الأوربية إذا دخلت فاتحة أمة من الأمم ، فهى لاتترك لتلك الأمة مجالاً للحياة ، بل تضطهدها وتعذبها حتى الفناء ، فإن كانت الأمة ضعيفة أو فطرية قضت عليها كما صنع الإنجليز فى أستراليا وأمريكا بسكانهما الأصليين ، وإن كانت الأمة المغلوبة على شىء من المدنية ، سدّت فى وجوهها أبواب الرزق وأبواب العلم وأبواب الحياة حتى تجعل منهم خدماً وعبيداً لا يصلحون للسيادة وإنما ينفعون للاسترقاق ، وأخذت منهم مصادر التجارة ووضعت أيديها على منابع الحياة ذاتها .

الاستعمار والتعليم فى الهند :

ففى الهند مثلاً - وقد دخلتها إنجلترا تحت ثياب شركة تجارية - نبّههم لورد ماكولى إلى خطر تعليم الهنود تعليماً عالياً

لما رآه من ذكاء الهنود واستعدادهم ، فقصروا التعليم على الأشياء الابتدائية ونشروا اللغة الإنجليزية وحاربوا اللغات واللهجات الوطنية بحيث صار الهندى يتفاهم مع أخيه الهندى بالإنجليزية ، ولما حضر شوكت على إلى مصر (١٩٣١) كان يخطب بالإنجليزية وهو هندى مسلم ، وربما كان من سلالة العرب الفاتحين . وجعلوا التعليم فى مدارس الطب الهندية قاصراً على تخريج ممرضين لا أكثر ولا أقل ، ومن كان من الهنود يريد إتمام تعليمه ، فما عليه إلا أن يقصد لندن حيث يغرق فى تيار سكسونى ، فيعود بآداب وعادات وأخلاق إنجليزية ، ويعود بنفور من شعبه واحتقار لقومه .

وهل يقال إن الهند بثروتها ونبوغها وأصولها الأوربية عاجزة عن تأسيس مدارس للطب ومستشفيات مثل مدارس إنجلترا ، وهى التى جندت فى الحرب العظمى جيشاً جراراً قوامه مليون جندى بعدده وعتاده وسائر لوازمه ؟

ولكن الخطة الاستعمارية ترمى إلى تضييق نطاق العلم حتى يبقى الشعب المستعمر الشرقى فى حمأة الجهل والغباء .

محاربة الاستعمار اللغة العربية والتعليم فى مصر :

وفى مصر حاربت إنجلترا اللغة العربية وقام قاض إنجليزى اسمه ويلمور (وترجمته طالب المزيد !) يقترح على المصريين

(١٩٠٣) ترك اللغة العربية الفصحى التى صارت « لغة ميتة » والأخذ بناصر اللغة العامية ، ولكن دعوته قوبلت بعاصفة من الاحتجاج والردود ولم تجد أذناً صاغية [١].

وفى الوقت نفسه كان دوجلاس دنلوب ديكتاتور وزارة المعارف الشهير ، يحارب اللغة والآداب العربية وينشر اللغة الإنجليزية بكل قوته ، وقد وجد للأسف أعوانا من المصريين من نظار المدارس وأساتذتها ، وأذكر أنه فى سنة ١٨٩٩ انقلبت فرق بحالها فى السنة الثالثة الابتدائية من اللغة الفرنسية إلى اللغة الإنجليزية ، وكان التلاميذ يساقون سوقا إلى الفرق الإنجليزية ، وأعرف أحد نظار مدارس الأرياف كان نصَّب نفسه مبشراً يدعو آباء التلاميذ ويقنعهم بسيادة اللغة الإنجليزية فى المستقبل ويخذل الفرنسية التى لم يعد لها حظ فى وظائف الحكومة والدواوين الأميرية ، فكانوا -ومعظمهم من الفلاحين- يطيعون ولا يناقشون ويتكلفون المبالغ الباهظة فى سبيل الدروس الخاصة لتحويل أبنائهم من لغة لاتينية إلى رطانة سكسونية وكلاهما لغة أجنبية عن لغتهم .

واندثرت معالم الأساتذة الفرنسيين أو المصريين المتعلمين فى

---

(١) عن دعوة القاضى ويلمور انظر كتاب المؤلف « فى الأدب والنقد » ، ص ٥٩٨ ، عالم الكتب ، سنة ٢٠٠٠ م .

فرنسا حتى رأينا الأستاذ العالم الفاضل ميخائيل فرج - وهو متخرج من أكبر مدارس فرنسا العليا ونابغ فى العلوم الرياضية - ينزوى فى عنفوان شبابه فى المدرسة الخديوية يراقب فرقة السنة الثانية الابتدائية ! وكان يجب أن يكون مدرساً فى أعلى الفرق. وكان نظار المدارس الذين ينجحون فى استهواء التلاميذ وأولياء أمورهم ، يكافأون ويرقّون وترمقهم وزارة المعارف بعين العناية وإن يكونوا على أعظم نصيب من الغفلة والجهل وفساد الأخلاق ! وقد بلغ التزلف ببعضهم وخور الطبيعة إلى أن تزوجوا من سيدات إنجليزيات ليكون ذلك شفيعاً لهم وتوصية حارّة أمام رؤسائهم الإنجليز !

الدعوة إلى تأسيس جامعة مصرية :

وعندما قامت الدعوة لتأسيس جامعة مصرية بناء على نداء المرحوم مصطفى كامل فى سنة ١٩٠٦ ، قاومها اللورد كرومر مقاومة عنيفة وحاربها حرباً سرية مكتمة وأمر وسطاءه وجواسيسه وخدمه ومحاسيبه من المصريين الأغنياء والصحفيين ورجال الحكم أن ينشروا الدعوة للكتاتيب ونشر التعليم الابتدائى ، وأخذ يدافع عن نظرية الكتاتيب فى تقاريره ويهزأ بفكرة الجامعة (وكان الاقتراح يصفها بالكلية تقليداً لكلية بيروت الأمريكية ولحداثة عهدنا

بالفكرة) ويشبّه محبذى فكرة الجامعة بمن يريد بناء البيت من أعلاه قبل وضع الأساس ، وقد نجح فعلاً فى بث الدعوة للكتاتيب وانثالت عليه الاكتتابات من قطيع الأعيان والعمد عباد السلطة والقوة والخائفين على رىّ أطيانهم وقصّاد الوكالة البريطانية التى كانت كعبة آمالهم ، فبنيت كتاتيب فى طول البلاد وعرضها ولكنها لم تستعمل وآلت إلى الخراب وبعضها استعمله هؤلاء العمد أنفسهم مرابط للخيل والأنعام ومخازن للقمح والشعير !

ومازالت فكرة الجامعة سائرة حتى تأسست فى ديسمبر سنة ١٩٠٩[١].

هذا مثال من أمثلة مصادرة المستعمر الأوربى للشرقى فى تعليمه.

أما الفاتح العربى ، فكان يدخل والقلم فى يده فيأمر الأمم المغلوبة بالعلم والتفقه ويتخذ من علماء النصرانية واليهودية وزراء ومستشارين وأطباء ويشجعهم ويوسع أرزاقهم لعلمهم وفضلهم وخدمتهم .

وقد كان طبيب صلاح الدين الخاص موسى الميمونى الذى مات بمصر ودفن حيناً بحارة اليهود ثم نقل إلى فلسطين ، ولعله

---

(١) انظر مقال المؤلف « الجامعة المصرية تودع عهداً وتستقبل آخر » فى كتابه « فى الأدب والنقد » ، ص ٤٦٣ - ٤٦٨ ، عالم الكتب ، سنة ٢٠٠٠ م .

الذى عالج « ريكاردوس» قلب الأسد بأمـــر صلاح الدين من تلك الحمى التى أصابته وكادت تخمد أنفاسه أثناء وجوده فى عكا يحارب المسلمين .

مصادرة الاستعمار الصناعات الوطنية وسرقة آثار مصر الفرعونية :

وكذلك المستعمر الأوربى يصادر الصناعات الوطنية ويقضى عليها ليؤلف جيشاً من العاطلين وليروّج صناعته وتجارته ، وهذا ماثل فى مصر حيث اندثرت صناعات وطنية بأكملها كصناعة الأسلحة والأثاث والنسيج ، ويهدم علوماً كاملة كما حدث فى مصر أيضـا أن تهدمت العلوم الفلكية والرياضية والعلوم الحربية والهيروغليفية والتاريخية .

وهكذا لايزال الأخطبوط الأوربى يمد خراطيمه ويمتصّ دماء الأمة المستعمرة حتى تفنى ، وهو ينقل ثروتها وينزح خيراتها بطيئاً أو حثيثاً حسب مقتضى الحال ، حتى آثارها القديمة لا يعدم الأوربى حيلة فى سبيل سلبها وسرقتها وتزيين متاحفه بها ، فإن الآثار المصرية الموجودة فى متاحف لندن وباريس تزيد فى العدد والأهمية عن الآثار الموجودة فى مصر . ولو أن مقبرة توت عنخ آمون اكتشفت قبل يقظة مصر الأخيرة لم يبق لنا منها شىء على ضفاف النيل كما حدث فى قبور الملوك التى اكتشفت فى القرن

التاسع عشر وهى الآن فى طيبة خاوية على عروشها ولم تبق فيها إلا النقوش التى تزين جدرانها وسقوفها ، ولو أن اللصوص الأجانب مثل شامبليون استطاعوا نزعها بغير تلف يصيبها ماترددوا فى ذلك طرفة عين !

إهمال المصريين :

ليس هذا إقداماً منهم وانتهازاً للفرص فقط ، بل هو أيضا جهل منا وتراخ وإهمال وغفلة وجمود وموت !

وإلا فمن كان يمنع أغنياء المصريين عن تعليم بعض أولادهم فى أوربا ومصر تلك العلوم العالمية وهم بحمد الله في سعة من الرزق ورغد من العيش لا يحتاجون للعمل المادى لكسب قوتهم ؟ ومن كان يعوق بعض أغنيائنا عن الخروج عن بعض ثروتهم فى سبيل البر والتقوى والمعونة لأبناء الفقراء الذين كان يسميّهم مصطفى كامل « الكنوز المدفونة » ؟

الجواب : لقد منعتهم الأنانية وحب النفس والطمع وعبادة السلطة ، فكانوا بلاء على قومهم وشراً على وطنهم (أشد وطأة من المستعمرين) ولولاهم ما تمكن الأجنبى منا إذ لا يملك لص أن يدخل بيتا ويسرق ما فيه بدون دسيسة من أهله تدلُّه على مواطن الضعف ووسائل الجريمة مع الاطمئنان !

الاستعمار ومحاربة اللغة العربية :

ذكرنا محاربة المستعمرين للغة العربية الفصحى فى مصر[١] ومثلها فى شمال إفريقيا حيث استولى الأوربيون على ممالكها من طرابلس الغرب إلى رباط الفتح فالدار البيضاء . ولا تظن أن هذه المحاربة قد فترت أو خمدت ، ولا تحسبن أن اهتمام المستشرقين باللغة العربية كان حباً فى آدابها وتعلقاً بشعرها ونثرها وهى لغة من أصعب اللغات تعليماً وتعلما . لقد كانت فى أول الأمر فرعاً من اللغات السامية يتقنها العلماء الذين يتبحرون فى تاريخ الشرق لتفهم آثاره، **ولكن فى الدور الأخير- أى منذ أربعين عاماً- كان الاهتمام باللغة العربية يراد به التمهيد للحملات الاستعمارية** ، فإن الطليان استعملوا أستاذهم سانتيلانا فى وضع قانون لأهل طرابلس ، وإننا ننزه بعض المستشرقين عن المقاصد الاستعمارية ونخص بالذكر دى ساسى وإرنست رينان وإدوار براون ، فإن هذا الأخير خدم قضية الحرية فى بلاد الفرس وفى مصر. ولكننا لا نغفر لغيرهم مقاصدهم الخفية التى تظهر أحياناً على رؤس أقلامهم وعلى أفواههم .

---

(١) انظر صفحة ١١٩ من هذا الكتاب .

وقد كتب كاتب مصرى أديب من باريس يقول : إن اهتمام الألمان بالمشرقيات لم يبلغ أشده إلا قبل الحرب حيث كانت للألمان مطامع ومطامح بعيدة فى الشعوب الشرقية ، فكانوا لذلك يستعدون لفهم الشرق الإسلامى من جميع نواحيه ، وكان من أثر تلك المطامح أن شجعوا الدراسات العربية والإسلامية فى جامعاتهم وأعانوا أبناءهم على التبحر فى علوم العرب والمسلمين ، وجاء دور فرنسا فهى التى تعنى أكثر من غيرها بالدراسات العربية ، وقد أنشأت بالفعل معهداً للدراسات الإسلامية بالسوربون (ولعله حل محل مدرسة اللغات الشرقية) ، غير أن الفرنسيين يريدون أن يستريحوا من اللغة العربية ومن الإسلام ، وسبيلهم إلى ذلك أن يقنعوا بعض الجهال من أهل الشرق بأن اللغة العربية قد أصبحت فى عداد اللغات الميتة ، وأن الإسلام لا يصح أن يكون أساساً لمدنية جديدة وأنه لا يليق بالرجل العصرى أن يكون متديناً لأن الديانات لم تكن إلا لهداية الرعاع !

ويقول مستشرق آخر : إن اللغة العربية ترجع إلى لغتين متمايزتين ، الفصيحة وهى لغة الكتب العلمية والأدبية وهذه لغة ميتة لأنها ليست شائعة فى الحياة اليومية ، واللغة الثانية هى اللغة العامية وهى لغة التخاطب وهى لغة حية ولكن الناس لا يدونون أفكارهم بها ، ويرى ذلك المستشرق أنه ينبغى هجر اللغة الفصيحة

مرة واحدة لأنها غير متصلة بأذواق الناس كما ينبغى ترك العامية للهمج والأوباش ، وهو يقترح إحلال اللغة الفرنسية محل اللغة العربية فى المدارس والدواوين والمحاكم والمصالح وما إليها !!...

وقديما كانت حجتهم أن لغة العرب لا تصلح للحياة لأنها لا تستطيع وعى العلوم الحديثة، فكذبت الأيام دعواهم وحفلت تلك اللغة بكتب الطب والرياضة والفلسفة والتاريخ وتقويم البلدان والاقتصاد والقانون .

وأنت ترى ماذا يصنع أهل جنوب فرنسا فى إحياء لغتهم البروڤنسيال من تمجيد شاعرها الفذ ميسترال وتخليد آثارها ، وكانوا فى غنى عن ذلك بلغتهم الفرنسية .

والفرض المستور من هذه الحملة الحديثة هو القضاء على التقاليد العربية والإسلامية ليخلو الجو للغة المستعمرين الأبرار وأنصار العلم والإنسانية !!

وقد تجرأ بعضهم واقترح كتابة اللغة العربية بالحروف اللاتينية لينحدر الشرق العربى إلى مثل ما انحدر إليه بعض الأمم الشرقية لتضيع اللغة العربية وهى جزء مهم من شخصية الشرق الإسلامى وليسهل قطع ما بيننا وبين أسلافنا من الأواصر الأدبية

والروحية [١].

وكأنه لم يكف الفرنسيين ما صنعوه فى تونس والجزائر ، فقد أبادوا اللغة العربية الفصحى تقريباً إلا من المساجد والجوامع وأصبح المغربى الأمى يخاطب ضيفه أو أخاه بالرطانة اللاتينية !

لقد يظن البعض أن المستعمرين يريدون القضاء على اللغة العربية الفصيحة لأنها لغة القرآن فقط . كلا إنهم يريدون القضاء عليها لأنها العنصر الأهم فى تفاهم الأمم الشرقية والإسلامية من الخليج العربى شرقاً إلى المحيط الأطلنطى غرباً ، فمئات الملايين من سكان تلك الممالك يتكلمون العربية ويكتبون بها، وهى الأداة الكبرى فى توثيق روابط الاتحاد والألفة بين تلك الشعوب . فإن السائح الشرقى قد يجوس خلال تلك الممالك وهو فى وسط قومه يأكل أكلهم ويشرب شرابهم ويدرك

---

(١) يؤخذ من هذا الكلام الذى كتبه المؤلف سنة ١٩٣١ أن الدعوة إلى استعمال الحروف اللاتينية فى كتابة اللغة العربية كانت سابقة على دعوة عبد العزيز فهمى إلى ذلك فى كتابه المسمى « الحروف اللاتينية لكتابة العربية » والذى أصدره سنة ١٩٤٤ .

وقد رد عليه لطفى جمعه فى حينه وفنّد دعوته هذه فى سبع مقالات منها أربع نشرها فى جريدة منبر الشرق سنة ١٩٤٤ ، وثلاث نشرها فى جريدة الدستور فى تلك السنة أيضا .

(أنظر هذه المقالات فى كتاب المؤلف « فى الأدب والنقد » ، ص ٥٩٨ - ٦٢٩ ، عالم الكتب سنة ٢٠٠٠ م ، القاهرة) .

أفكارهم ويفضى إليهم بآماله وآلامه ، ولا يجد المصرى صعوبة فى التفاهم مع المراكشى أو السورى أو العراقى أو السودانى أو اليمنى ، فى حين أن الفرنسى الذى تفصله عن إنجلترا شقة من البحر هى خليج المانش يجد نفسه عند وصوله إلى الجزيرة البريطانية غريب الوجه واللسان والعقل ! فإذا انحدر إلى إيكس لا شابل رأى أمة الألمان وبينه وبينها من « صنع الحديد والنار » من البغضاء ، وإذا بلغ محطة مودان رأى نفسه بين شعب الطليان، وفى الجنوب تراه محاطاً بالإسبانيول والبصك وهكذا ... فهو فى نقمة من حيث العجز عن التفاهم مع جيرانه وحلفائه ، ولكن الشرقى العربى فى نعمة وفى يده كنز لا يستهان به وسلاح قوى هو ذلك اللسان العربى الذى وحّد الأخلاق والعادات والتقاليد والآداب (١).

وحدة الثقافة بين أقطار الشرق العربى الإسلامى :

وإن موضوع وحدة اللغة العربية فى أقطار الشرق العربى الإسلامى يجرنا إلى البحث فى وحدة الثقافة التى هى الجانب

---

(١) انظر مقال المؤلف « الحضارة العربية وأهم مقوماتها ، اللغة العربية والدين الإسلامى والمنازع الفطرية القومية » فى كتابه « قضايا ومشكلات اجتماعية فى مصر المعاصرة » ، ص ٩٤ - ١٠٢ ، عالم الكتب ، القاهرة ، سنة ٢٠٠١ م .

المعنوى من الحياة القومية ، فلا يغيب عن ذهننا أن اللغة لا تصلح وحدها وحدة للتفاهم والائتلاف ، **بل يجب التعاون بين الأقطار العربية لتكوين ثقافة عربية عصرية** ، ولا تكون تلك الثقافة العربية العصرية مقصورة على ما تملكه الشعوب العربية اليوم فى الأدب واللغة والتقاليد والعلوم والفنون والعادات ، **بل يجب أن تشمل تلك الثقافة كل ثمرات المستقبل من المبتكر والمستنبط .**

إن مدنيتنا العربية اليوم واحدة ، ولغتنا وآدابنا وعاداتنا وتقاليدنا مشتركة ، وكذلك آلامنا وآمالنا ومطامحنا مشتركة ، وكلنا نتطلع إلى الخلاص من ربقة العبودية ومن الحكم الأجنبى ، وثقافتنا القديمة والحديثة واحدة منذ ظهر الإسلام فى جزيرة العرب ، **فإن الإسلام كالطائر القوى ، قلبه بمصر وجناحه الأيمن بالعراق والشام وجناحه الأيسر بشمال إفريقيا قد طار وعلا وأنتج تلك المدنية العربية الإسلامية التى ورثتها كل تلك الشعوب وعاشت فى كنفها واحتمت بظلالها** ، ولا تحلم أمة شرقية عربية واحدة فى خلق ثقافة كاملة بمفردها ، بل ينبغى لها أن تتعاون مع أخواتها وجاراتها فى خلق تلك الثقافة التى تقنع الجميع وترضى مطامعهم.

وجوب اصطباغ الثقافة بالصبغة العربية الشرقية العصرية:

ويجب أن تكون الثقافة التى ننشدها ثمرة امتزاج المدنية الموروثة بالمدنية الأوربية ، وأن تصطبغ بصبغة حياتنا العصرية الحديثة فتكون خالصة لنا ، لا قديمة للأقدمين وحدهم ولا غربية للأوربيين ، **ولكن ثقافة شرقية عربية عصرية للجميع** ، لها مقوماتها ومميزاتها التى تجعلها بارزة بشخصيتها ، كالولد الذى يرث والديه ويشبههما من بعض الوجوه ولكنه مستقل عنهما بقوته وتفكيره وشخصه .

وإذا ما نحن أخذنا عن أوربا شيئاً فيكون ذلك نتيجة درس وتحليل لاكتشاف الأسس والعوامل الفعالة لنقتبس ما يلائمنا ويفى بحاجتنا ولا يضر بأمانينا ولايناقض طبائعنا وبيئتنا .

وينبغى أن تكون ثقافتنا ثمرة لدرس حياتنا الحاضرة بما فيها من محاسن ومساوىء ، وأن نكون عادلين فى الحكم على أنفسنا وعلى ثقافتنا ، فنحتفظ بما هو صالح ونافع للبقاء ونقويه وننميه وننبذ ما كان ضاراً وغير صالح للبقاء بلا شفقة ولا رحمة .

ولا يغرب عن ذهننا أن الثقافة الصحيحة هى التى لا تتناقض مع مكارم الأخلاق ، فنحن لانريد ثقافة ترقق

نفوسنا وتنعّم عواطفنا وهى فى الوقت نفسه قد تقضى على مواهبنا أو على أخلاقنا وتأتى على ما فيها من عزة وإباء وشرف وصلابة فى الحق وشدة فى البأس ، إن الثقافة التى تقضى على تلك الصفات لا تنفع وقد تضر ، وليس الجمع بين الثقافة والفضائل بالمستحيل ، وقد تمكن الأوربيون واليابان من الجمع بين الأمرين .

تطلع الشرق الإسلامى إلى مصر وزيادة أهميتها بحفر قناة السويس :

إن الشرق الإسلامى منذ ألف وأربعمائة عام يتطلع إلى مكانين فى العالم ، إلى الكعبة فى مكة مصدر الدين الذى انتشر بسرعة البرق ولأنه مقر الكعبة التى يحج إليها المسلمون فى كل عام . والمكان الثانى الذى يُتطلّع إليه هو مصر لأنها مقر جامعة الأزهر التى يقصد إليها الطلاب المسلمون من كل فج ، ولأن مصر بحكم مركزها الجغرافى واسطة عقد الشرق ، ولأن بحكم تاريخها وارثة مدنيات المصريين القدماء واليونان والرومان والعرب والترك ، فهى فى الواقع - كما قال نابليون بونابرت - أعظم مملكة فى العالم ومن يحتلها يسيطر على الدنيا بأجمعها . ومازالت مصر مجمع الأمم الشرقية والغربية وفيها ملتقى السبيل إلى الغرب والجنوب والشمال ، وقد

زادت أهميتها بحفر قناة السويس التى قربت البعيد وقضت على المسافات الشاسعة وجمعت بين آسيا وأوربا وأفريقيا فى وقت قصير(١).

وربما كانت قناة السويس بلاء على المصريين أنفسهم لأنها جعلت بلادهم مطمعاً للدولة البحرية القوية التى تريد حماية طريقها إلى مستعمراتها فى الشرق ، ولكن نحن أنفسنا صنعنا هذا البلاء بضعفنا وجهلنا وتفريطنا .

فلم يكتف أحد أمرائنا الراحلين بأن أعطى الامتياز لدولة أجنبية بل باع أمير آخر فى سبيل الزهو والخيلاء والإسراف نصيبه ونصيب مصر فى أسهم القناة وأصبحت فرنسا وإنجلترا هما المسيطرتين على ذلك الطريق العالمى العظيم . وقد تم شراء تلك الأسهم على يدى نيكو سفيلد دزرائيلى ذلك الوزير اليهودى الذى كان من أعدى أعداء مصر وقد رأى بغريزته اليهودية أهمية امتلاك تلك الأسهم بعد أن كان من أكبر المقاومين لمشروع حفر القناة ، فاقترض الأموال الطائلة من روتشيلد ابن دينه وربح تلك الصفقة للإمبراطورية البريطانية .

---

(١) انظر مقال المؤلف « النزاع العالمى على قنال السويس » فى كتابه « مباحث فى التاريخ » ، ص ٣٠٧ - ٣١٢ ، عالم الكتب ، القاهرة ، سنة ٢٠٠١م .

وعندما ينتهى امتياز شركة القنال الفرنسوية سنة ١٩٦٨ سنلقى فى وجهنا أرباب الأسهم من الإنجليز الذين بدأوا من الآن يحسدون الفرنسويين على استئثارهم بالأغلبية فى مجلس إدارة القنال (خطب فى البرلمان الإنجليزى ٢٥ فبراير سنة ١٩٣١).

على أن هذه الحالة الشاذة التى جنتها علينا ظروف سيئة الطالع لاتبرر يأسنا أو تراخينا أو ترددنا فى **العمل لأجل المستقبل، فإن القنال سيئول إلينا بعد انتهاء مدة الامتياز سنة ١٩٦٨ مقابل شراء مخلفات الشركة . ويجب على مصر أن تفكر فى ذلك وتعدّ له العدة من الآن .**

وكل هذا لا يمنع مصر من سيادتها ومن عظم مركزها ، فإن خصوبة أرضها وذكاء أهلها والدروس القاسية التى تلقنتها بفضل الألم طوال تلك القرون كافية لأن تقوّى حيويتها التى لم تفارقها قط .

الأزهـــر :

- كانت مصر كما ذكرت قبلة أنظار الشرق الإسلامى بسبب الأزهر الشريف ، وكانت محط رجال طلاب العلم والفقه فى رحابه، وكان طلب العلم فى القاهرة بمثابة عقد ائتلاف وصداقة بين أبناء تلك الشعوب وبيننا الذين مافتئوا ينظرون إلى مصر نظر المعلمة المربية كما يتطلع طلاب العلم الغربيون إلى جامعاتهم ويطلقون

عليها اسم Alma Mates .

والآن يمكن اعتبار الأزهر فى حيز العدم لأن التقسيم والتشتيت الذى أصاب كلياته فى العهد الأخير جعل منه مسجداً فقط وفى كل مديرية معهدها الدينى وتوزعت البقية الباقية من طلابه على معاهد القاهرة .

وقد شغف الشيوخ من متخرجين بالطرابيش «وتأفندموا» فى دار العلوم وغيرها وأضربوا منذ بضعة سنين فى سبيل البنطلون والطربوش حتى اضطرت وزارة المعارف إلى التسليم لهم بنظرية التجديد ، وكأن العمامة الجميلة الوقور والجبة والقفطان آخذة فى الذبول ثم الزوال !

ولكن الأزهر أصبح لا يهمنا الآن خصوصا وأن مصر لم تجن منه خيراً كثيراً ، وقد كان فى معظم عهوده معقلاً للرجعية الدينية والاجتماعية ولم يلق فيه الشيوخ المصلحون والنابغون إلا الدمار والاضطهاد ، وقد طرد من حظيرته رجال أجلاء أمثال جمال الدين ومحمد عبده .

وحتى الرجال الأتقياء والمصلحون الذين كانوا معقد آمال طائفتهم ، عندما يتولون المناصب الرسمية ويندمجون فى سلك الوظائف والمرتبات الضخمة والأوقاف التى لاحد لها ، ينسون كثيراً من مبادئهم ويجارون غيرهم من الأقوياء والمقلدين ، وإن لم

ينقلبوا على قومهم فهم على الأقل يصبحون على الحياد أو من الأصفار على شمال الأرقام !

ولكن فى مكان الأزهر قامت نهضة مصر العلمية والأدبية ، وظهرت الحركة السياسية نحو الاستقلال ، وهذه الحركات قام بها فريق المتعلمين فى المدارس الحديثة ، وفى الوقت نفسه سرى هذا التيار إلى أمم الشرق العربى ، فبعد أن كانت تنظر إلينا لأجل الأزهر ، أصبحت تتطلع إلى نهضتنا لأنها تطمع هى أيضاً فى النهوض وتطمح إلى الحرية والاستقلال وخلع نير الحكم الأجنبى.

فهؤلاء الشرقيون - إن لم يرسلوا أولادهم إلى الأزهر - فهم يرسلونهم إلى المدارس الحديثة فى مصر وينظرون إلينا كما ننظر إلى أوربا ، لأن نسبة التقدم تكاد تكون واحدة ، فالأندنوسى يجد فى مصر الكفاية من التعليم والتهذيب وبذلك صارت تلك العلاقة محفوظة وهى فى نمو وازدياد ، والعراقيون والحجازيون وبعض السوريين يرسلون شبانهم إلى مدارسنا .

وهناك مؤثر آخر لا يقل عن هذا المؤثر وهو انتشار الآداب والأفكار المصرية فى بلاد الشرق الإسلامى عن طريق الجرائد والمجلات والكتب بفضل اللغة العربية الفصيحة التى يقرؤها الجميع ويفهمونها .

وقد علمت من الثقاة أن صحفنا ومجلاتنا وكتبنا تقرأ فى سوريا وفلسطين والعراق وفارس والحجاز والأفغان والهند وشمال إفريقا أكثر مما تقرأ جرائد تلك البلاد فيها .

لأن تلك الأمم مستلهفة على أخبار مصر وتريد الوقوف على كل مايجرى فيها ، فهى تنظر إلى مصر نظر القدوة والمثل الأعلى ، ويعتبرونها زعيمة المستقبل فى السياسة والاجتماع والعلم والأدب ، كما كان الغربيون ينظرون إلى فرنسا بعد الثورة .

ولا يكون العالم الشرقى عالماً أو أديباً إلا إذا تمصَّر أى عاش فى مصر وأدرك شئونها واندمج فى مجتمعها ولو حيناً من الدهر ، وقد كان لمصر فضل على رجال أسسوا فى الشرق دولاً ، فإن المهدى الشهير، تلقى علومه فى الأزهر وكذلك الإدريسى الذى أسس الدولة الأدريسية ، وزعماء تونس وطرابلس وسوريا وتركيا تربطهم كلهم بمصر روابط قوية ، ولم يجد جمال الدين الأفغانى تربة لأفكاره أصلح من التربة المصرية .

نهضة الوطنية المصرية وزعامة مصر :

ويرجع بعض المؤرخين تاريخ تلك العلاقة الحديثة إلى نهضة الوطنية المصرية وتأسيس الحزب الوطنى حوالى سنة ١٩٠٠ ، فإن ظهور مصطفى كامل وجرائده ومجلاته وخطبه ودفاعه فى حادثة

دنشواى المريعة [١] كان لهذا كله أعظم وقع فى الشرق العربى وحتى فى مسلمى الهند الذين قاموا حوالى تلك الفترة وأسسوا كلية عليكرة وغيرها من المعاهد العلمية المنتظمة .

وكانت حركة ١٩١٩ هى الشرارة المنتظرة فقامت مثلها حركات فى أنحاء الشرق الإسلامى وشمال إفريقيا .

فهذه الزعامة المنتظرة لمصر بل الحادثة فعلاً ، لايجوز إهمالها ولا تحقير شأنها ، بل يجب العمل على التمهيد لها وإتمامها ، وفى يدنا سلاح اللغة وسلاح الثقافة وسلاح الألم المشترك بيننا وبين تلك الأمم .

لم يكن جمال الدين الأفغانى هو وحده الذى قصد إلى مصر، بل كل مفكر فى الإصلاح جاء بعده ورد مصر وطلب منها المعونة الأدبية والفكرية ونشر فيها آراءه .

ففى سنة ١٩٠٠ جاء المرحوم عبد الرحمن الكواكبى ونشر فكرة المؤتمر الإسلامى فى كتاب «أم القرى» وهاجم الحكم المطلق التركى فى كتاب « طبائع الاستبداد » وفاجأته المنية وهو يؤلف رسالته « العزة لله » .

---

(١) انظر عن « حادثة دنشواى » ، مقال المؤلف فى كتابه « مباحث فى التاريخ » ، المرجع السابق ، ص ٣٥٨ - ٣٦٦.

وبعده ببضع سنين جاء المرحوم إسماعيل غصبر نسكى من مدينة بغجة سراى عاصمة القريم ، واقترح فكرة النهضة الإسلامية وتأليف مؤتمر يكون مقره مصر للبحث فى إنهاض الشرق من وهدته .

وعندما نالت مصر دستورها سنة ١٩٢٣، طالبت كل أمم الشرق الإسلامى بنظام يمائله وسعت إلى ذلك بكل جهدها فوفق البعض ولايزال البعض ساعيا . وحركة الهند نفسها لم يشتد ساعدها بعد خمول وركود دام قرنين كاملين إلا بعد الحركة المصرية !

فهذه القوة المهولة التى وهبتها لنا الطبيعة والعناية الإلهية لايجوز لنا التفريط فيها .

يجد المصرى أينما ذهب فى وسط شرقى أو بيئة عربية التقدير كله والاهتمام العظيم ، ففى أمريكا حيث توجد جاليات سورية وعربية لمصر وآدابها وأفكارها مكانة متمايزة ، وإذا حلَّ بهم مصرى سواء أكان أديباً أو متفننا أو عالماً رحبوا به وأقبلوا عليه وأخذوا عنه وأكرموه ، وحتى المشعوذ المصرى واسمه دسوقى وأطلق على نفسه اسم « جلى جلى » وجد رواجاً فى أنحاء العالم وكتبت عنه السيدة چيرمين بومون مقالاً بليغاً فى جريدة الأخبار الأدبية فى عدد ٢١ فبراير سنة ١٩٣١ وهى تعد من أمهات المجلات الأدبية فى العالم والكاتبة من شهيرات الكاتبات .

فكيف يصح لنا أو يخطر ببالنا أن نتهاون فى أمر تلك الزعامة أو نهمل شأنها ؟ يجب علينا أن نبذل كل مرتخص وغال فى سبيلها حتى تصبح حقيقة واقعة .

إن مصر كما قلت ملتقى السبيل وهى فى كل عام موعد لقاء لعظماء العالم العربى والعالم الشرقى ، ولا يمضى شهر دون أن يزورنا علماء وفضلاء وزعماء وكتاب مشهورون ويقضون بين ظهرانينا أشهراً باحثين منقبين مستفيدين من حياتنا وآثارنا ونهضتنا الحديثة ، ومعظمهم يحملون أقلاماً ذائعة الصيت وهم أرباب فصاحة وعلم ، ومنهم أرباب الأموال الطائلة والمتربعون على مناصب كبيرة ، واحتكاكنا بهؤلاء وأولئك أعظم دعاية لنا فى أنحاء العالم ، **فيجب أن نقنعهم بأننا « أمة المستقبل » القريب فى الشرق** ، ويجب أن نقضى على الخرافة التى يذيعها عنا أعداؤنا من أننا ضعاف وأننا متأخرون وأننا من الاستسلام بحيث إذا خرجت من بلادنا الدولة المحتلة نكون فريسة للدولة الأولى التى تشاء الاستيلاء علينا !

إن مصر محطة العالمين ولايجوز أن يحكمها غير أهلها وأبنائها ، واستقلالها فى مصلحة الجميع ، وإذا أطلقت أيدينا فى شئوننا فإننا لن نقصر عن أن تكون فى مصاف اليابان لأننا لا ينقصنا شىء من مقومات الحياة ، وقد أعطينا

المثل التاريخى منذ مائتى عام فى عهد محمد على فى السياسة والحرب والعلم والتجارة ، وكنا ناهضين من حكم المماليك واستبدادهم وأمكننا مع ذلك أن نجند جيشاً وأن نؤسس دولة ، **ولولا « الخناق » الذى أصابنا من الاحتلال الأجنبى ، ولو أننا استمررنا فى طريقنا ولم نصب بالإسراف والتبذير والانقسام ، لم نكن اليوم بأقل من دولة اليابان .**

مصر بعد الاستقلال :

لعل معترضاً يخيفنا بشبح أوربا الظالمة أو أمريكا المتغطرسة، ولكن هل يظن المعترض أن احتلال أرضنا بعد خروج الغاصب أمر سهل فى حالة العالم الحاضرة وفى ظل الظروف السياسية التى يمر بها العالم الآن ؟

وهل تجرؤ دولة أجنبية مهما كانت قوية على احتلال مصر من جديد دون أن تعرض نفسها لحرب عالمية تهلك الزرع والنسل لفرط التزاحم والمنافسة بين الجميع ؟

ماذا يحدث بعد عشر أو عشرين سنة ؟:

على أننا نتكلم على افتراض بقاء الحال على ماهى عليه بعد عشرين أو ثلاثين سنة ، وهذا بلا ريب محال بالنظر إلى مانراه فى

العالم الآن[١].

لقد كانت روسيا دولة أوربية عظمى وكانت تهدد العالم كله ، فكانت تستولى على الشرق بالتدريج حتى بلغت فلاديفو ستك وهددّت اليابان فى كيانها ، وكانت فى أوربا تهدد إنجلترا فى الهند وتركيا فى الآستانة واشتركت مع إنجلترا فعلاً فى اقتسام بلاد الفرس ، وكانت تخيف غرب أوربا بالرابطة السلافية « بانسلافزم» ، فقد جاء حين من الدهر انتشر فيه الذعر فى أوربا وظن الأوربيون أن روسيا سوف تكتسح العالم بقوتها وعدد جيوشها وثروتها وحسبوا لذلك ألف حساب .

ولكن ما الذى جرى فى أقل من عشرين عاماً ؟

لقد حدث ما لم يكن يحسبه أحد .

فى سنة ١٩٠٥ اشتعلت نار الحرب بين روسيا واليابان ، وهزمت الروسيا شر هزيمة وزال الخطر البانسلافى فى طرفة عين

---

(١) لقد تحقق ما قال به المؤلف سنة ١٩٣١ ، فقد تم جلاء الإنجليز عن مصر سنة ١٩٤٦ وانحصر وجودهم فى منطقة القناة ، ثم قامت ثورة ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢ وماتلاها من آثار وتغييرات جذرية فى جميع مناحى الحياة فى مصر من سياسية واجتماعية واقتصادية، ووقعت قبل ذلك الحرب العالمية الثانية (١٩٣٩ - ١٩٤٥) وماترتب عليها من أحداث جسام غيرت من خريطة العالم وانقسم العالم إلى معسكرين غربى وشرقى إلى غير ذلك .

وتكشفت روسيا عن حقيقتها وبان ما فيها من فساد ورشوة وجبن ومظالم وسقطت سقوطاً شنيعاً فى نظر العالم كله لأن العالم يعبد القوة .

ومن سنة ١٩٠٥ اشتد أوار الثورة الداخلية ضد القيصرية المستبدة فى سبيل تحرير الشعب الروسى ، وكانت الفوضى والنيهليست والجمعيات السرية ، ومازالت هذه القوى الخافية الكامنة تعمل فى الظلام حتى كانت الحرب العالمية فى سنة ١٩١٤، وكانت روسيا هى البادئة دفاعاً عن صربيا ، وانتهت هذه الحرب بالنسبة لروسيا بصلح برنست ليثفوسك وظهور الثورة البلشفية وانتقال الحكم من أيدى كرنسكى والمنشفيك إلى أيدى لينين وتروتسكى والبولشفيك، وبين عشية وضحاها انتقلت روسيا الإمبراطورية المستعمرة إلى جمهورية شيوعية معادية للاستعمار ولرؤوس الأموال ومعادية لكل ممالك أوربا المستبدة .

فتدبير من هذا كله ؟ هل أعداء روسيا لهم يد ؟

كلا ... إن الفضل فى هذا التغيير راجع إلى الروس أنفسهم وإلى سير الحوادث الخاضعة لقوانين وأنظمة تخفى علينا أسرارها .

فمن يدرينا ماذا يحدث فى العالم بعد عشر سنين أو عشرين سنة ؟

لعل أوربا تتحد فى عصبة أمم غربية ، ولعل الشرق يتحد فى عصبة أمم شرقية ، ولعل الدول الاستعمارية التى نخشى اليـــوم جانبها تندثر وتسقط كما سقط غيرها وتترك الشرق لأهله(١) .

ولماذا ننتظر الشر ولا ننتظر الخير ؟

ولكن هذا لايمنعنا من أن يكون شعـارنا هو نفسـه شعـار أبنائنا الكشافة وهو « كن مستعداً » . لنكن كشافة المستقبل ولنكونن أبداً ودائماً مستعدين مترقبين الفرص عاملين على التغلب

---

(١) هذا ما حدث فعلا فى الثلاثين عاماً التالية لكتابة المؤلف هذا الكلام حيث تألفت هيئة الأمم المتحدة بعد الحرب العالمية الثانية (١٩٣٩ - ١٩٤٥) ، وتكونت الجامعة العربية سنة ١٩٤٥ ، وانحسرت موجة الاستعمار الأجنبى عن دول الشرق وغيرها فى إفريقيا وآسيا واستقلت هذه الدول بعد أن تحررت من نير الاستعمار الأجنبى أو تخلصت من الوصاية الأجنبية وحصلت غالبية البلاد الإسلامية المستعمرة أو التى كانت تحت الوصاية الأجنبية على استقلالها ، كاندونيسيا (١٩٤٥) وسورية ولبنان والأردن (١٩٤٦) وباكستان (١٩٤٧) وليبيا (١٩٥١) والسودان (١٩٥٥) والمغرب وتونس (١٩٥٦) ومصر (١٩٥٦) وماليزيا (١٩٥٧) وغينيا (١٩٥٨) وموريتانيا ومالى والنيجر والسغفال والصومال وتشاد (١٩٦٠) والجزائر (١٩٦٢) ، كما استقلت البلدان التى يشكل المسلمون فيها أحد المكونات الوطنية الهامة مثل نيجيريا والكاميرون وساحل العاج وتوجو (١٩٦٠) وسيراليون (١٩٦١) وتنزانيا (١٩٦١ - ١٩٦٤) وهكذا انجلى الليل الاستعمارى عن فجر الاستقلال والتحرر لهذه البلدان (ر.ل.ج) .

على العقبات وعلى أعدائنا للوصول إلى غايتنا بالتضحية والبذل في النفس والمال ، فلن ننال البر حتى ننفق مما نحب !

زعامة مصر للقارة الإفريقية :

على أن زعامة مصر لا تنتهي عند الشرق العربي ، بل إنها بحكم وضعها الجغرافي تطمح في أن تمتد تلك الزعامة إلى القارة الإفريقية بأسرها .

وعندما نتكلم عن إفريقيا لا ننظر إليها نظر المستعمرين الجهلاء الذين يعتبرونها قارة سوداء مظلمة لأنها لاتزال بكراً ولم يتمكنوا منها . فإفريقيا قارة من أعظم القارات الخمس وأغناها ، وأهلها سواء كانوا في الشمال أو في الشرق أو في الغرب أو في الجنوب من أذكى البشر وأفضلهم .

وقد رأينا الحرب الشعواء التي قامت بها جمهورية البوير الهولندية الأصل في سبيل حريتها ، نقصد جمهورية الترنسفال ، فقد دوّخت الإنجليز في أواخر القرن الماضي ومازالت حتى اعترفوا لها بحريتها بعد الحرب وعاملوها معاملة كندا وأستراليا ، وأسماء كروجر ودي ويت وبوتا لاتزال ترنّ في آذاننا رنين غيرهم من أبطال الحرية !

فإذا حولنا نظرنا عن تلك البلاد الأوربية الأصل ، رأينا

إفريقيا مكونة من أمم معظمها نزاعة إلى الحرية مثل الحبشة التى هزمت إيطاليا فى موقعة عدوة الشهيرة (١٨٩٦) [١] وغيرها من الأمم التى لاتزال صالحة لنشر المبادىء الحرة لحياة المستقبل .

التبشير فى إفريقيا وإبادة الهنود الحمر وسكان أستراليا الأصليين :

ألا يحسب من يرى أن كل مسعى بذله المرسلون فى سبيل نشر الديانة المسيحية بين أهل إفريقيا قد خاب وفشل ولم يصادف نجاحاً يذكر ؟ يظهر أن القدرة الإلهية لاتراهم أهلا لانتحال الدين المسيحى !!

إن أهل إفريقيا لايزال كثير منهم وثنيين عبّاد أصنام ، **ولا نرى فى أواسط إفريقيا وشمالها ديناً مستحكماً غير الدين الإسلامى** ، فكأن الإسلام فاز حيث فشل غيره ، لأن فى الإسلام مايجذب الإفريقى مما لايوجد فى دين سواه .

ولايفوتنا أن نذكر أن أوربا لم تر نور النصرانية إلا بعد أن اقتبست المدنيتين اليونانية والرومانية ، ولا يخفى أنه لم تسكن إفريقيا أمة أوربية سوى أمة البوير وهى الأمة الوحيدة التى تمكنت

---

(١) انظر كتاب المؤلف « بين الأسد الإفريقى والنمر الإيطالى » عن المشكلة الحبشية - الإيطالية ، مطبعة المعارف ، سنة ١٩٣٥ .

من العيش فى جو إفريقيا واستنشاق هوائها ، ولكنها على قدرتها وذكائها وشجاعتها لم تفلح فى مصادقة الوطنيين ، ولم تخضع منهم أحداً لدينها ومدنيتها . ذلك لأن المدنية الغربية لاتدخل بحذافيرها إلا إذا تأصلت المسيحية ، ولا حاجة لأن نقول إن شعوب إفريقيا بأسرها لم تتعلم من أوربا شيئاً نفعها أو ساعدها على التقدم فى طريق المدنية ، ولم تر من الأوربيين إلا المدافع والبنادق والطيارات ، **لأن المستعمرين لم يشدوا رحالهم إلى إفريقيا إلا ليغنموا ويربحوا**، فهم إذا نزحوا عن مستعمراتهم تركوها خالية خاوية وغادروا الدار تنعى من بناها ، وما ذلك إلا لأن بين الوطنى والأجنبى حاجزاً منيعاً لا يمكن جوازه ، ولاشك فى أن النفور والبغض السائدين بين الوطنيين والأجانب يؤديان أخيراً إلى انقراض سكان إفريقيا الأصليين واستئصال شأفتهم لا محالة ، وإن الإنسانية لترجو من أوربا أن لاتعيد فى إفريقيا تمثيل الرواية المحزنة التى مثلتها منذ قرون فى أستراليا وأمريكا . إن تاريخ استعمار هاتين القارتين يحرج صدر الحليم ويسيل مدامع أجمد الناس عينا ويلين فؤاد أقسى الناس .

وما سبب فشل أوربا فى أستراليا وأمريكا إلا لأنها لم تستطع الوقوف على أخلاق شعب الهنود الحمر وعاداته وديانته ومواهبه وسجاياه ، أضف إلى ذلك أن الأوربيين لم يحاولوا تغيير دين أهل

أستراليا وأمريكا أو يصلحوا من أحوالهم ، ولا ندرى إن كانوا ينجحون لو أنهم حاولوا إدخال النصرانية أم لا ، ولكن ما نعلمه هو أنهم لم يحاولوا ذلك ، بل جاء الرجل الأبيض وأزاح بيده القوية كل ما تمثل أمامه من حياة أستراليا وآثار مدنية أمريكا الأصلية ، فقد كانت لهم مدنية تشبه مدنية المصريين القدماء ، بل تناول الرجل الأبيض سيفه ونبح هنود الشمال والجنوب والشرق والغرب حتى أصبحت قارة الدنيا الجديدة بحراً من الدماء ، فكان الرجل الأبيض يفرح لرؤية الدم ويطرب لإزهاق النفوس وينتشى بإفناء الأرواح !

وهكذا كان نصيب أهل أستراليا من الخمر ورصاص البنادق!

وعندما كان هؤلاء الوطنيون المساكين يخضعون للذل ويسلمون للأوربيين كانت تصيبهم أمراض أوربا فيموتون بها ، فكان مثلهم كمن فر من الرمضاء إلى النار ومن الموت إلى الموت!، وكأن المستعمرين الأوربيين رفعوا علماً كتبوا عليه « لا رحمة عندنا ومن يقف فى طريقنا فليس له إلا الموت الأحمر !!».

وآسفاه ! فقد نجحت أوربا فى إبادة ذلك الشعب الهندى الكريم ولا يوجد منه الآن إلا أفراد قلائل يراهم الناس كما يرون الغرائب والنوادر ، ولا نظن أن فى أستراليا من أهلها الأصليين ساكن دار أو نافخ نار !!

العلاقة بين السود والمستعمر الأبيض :

وإن قلبنا ليخفق عندما يخطر ببالنا أن ماتم فى أمريكا سوف يتم فى أفريقيا ، سيما ونحن نرى ما بين البيض والسود فى تلك القارة من البغض والنفور ولا داعى لهما إلا أن المستعمر الأبيض عاجز عن فهم طبيعة الوطنى الأسود ، فيعوقه جهله بطبيعته عن منحه نعمة المسيحية والمدنية . وأى دليل أصدق على قولنا من أن نصف سكان جنوب إفريقيا فنوا أو نزحوا من أرضهم .

وخليق بأوربا المتحضرة أن يصبغ الخجل وجهها ألف مرة كلما سمعت الأخبار المعيبة والقصص الشائنة التى ينقلها الرواة والصحف فى كل يوم من أواسط إفريقيا إلى عواصم المدنية ، فقد عرف العالم أنه عندما يصل الأوربي إلى تلك البلاد ينسى نفسه ويسقط سقوطاً فظيعاً ، فيحيا الحيوان القذر الساكن فى جسمه وتموت عواطف العفة والشرف فيه ، فلا ينظر إلى الوطنيين إلا نظرا شهوانيا محضاً ولا يعتبرهم إلا وسائل لتنفيذ أغراضه السافلة وإطفاء نار شهوته الحيوانية ، وأمثال تلك الأخبار لا تنقطع عن أوربا أسبوعا واحداً ، وكثيراً ما يطغى أحد هؤلاء المتمدنين وتزداد ذنوبه وبوائقه فيسأل عن أمره ويحاكم ، فتحمل الصحف وصف الجرائم والموبقات التى اقترفها فى البلد الذى ذهب بدعوى تهذيبه وتمدينه، فترتجف أوربا كلها من ذلك الوصف!

فقد عذّب أحد حكام الكونجو البلجيكية فى سنة ١٩٠٥ بعض ملوك تلك المستعمرة بأن ربطهم إلى الأرض بأوتاد متينة ووضع فى أفواههم أقراص العسل طُعماً لنوع فظيع من النمل المتوحش وتركهم فريسة لتلك الحشرات القاتلة حتى ماتوا أفظع موت بعد عذاب تقشعرّ له الأبدان!

وحدثت فى ذلك مناقشة فى البرلمان الإنجليزى ونشر تقرير لجنة حققت فى هذه الجناية المروعة .

الاستعمار فى شمال إفريقيا :

على أن لدينا فى شمال إفريقيا مثالاً واضحاً كل الوضوح يدل على عجز الأوربى عن ابتلاع الوطنى وجلبه إلى حظيرة المدنية الأوربية بالقوة لتسهيل استغلاله وابتلاعه .

فإن الفرنسيين - على ماهم عليه من الصفات التى تميّزهم عن سواهم - خابوا فى الجزائر وتونس كما خاب غيرهم فى سواهما ، فقد قضى الفرنسيون ثمانى عشرة سنة يجردون الحملات ويعبئون الجنود ويحشدون الجيوش حتى انتصروا على عرب الجزائر وقهروا الأمير عبد القادر الجزائرى الشهير الذى يعد بطلاً من أبطال الحرية فى العالم ، ومضى عليهم الآن نحو مائة سنة فى تلك البلاد (وقد احتفلوا بالعيد المئينى فى العام

الماضى) ، ولايزال أهل الجـزائر يكرهونهم وينتظرون فـرصـة تمكنهم من خلع نير فرنسا وطرد أهلها من بلادهم ، وطالما حاولت فرنسا أن تبثّ فيهم النصرانية ففشلت فشلاً مزرياً . فإذا أصرّ العرب على البقاء على دينهم ورفضوا المدنية المسيحية فإن فرنسا تهددهم لا محالة بالفناء ، وقد حاولوا ذلك الآن فى أمة البربر واستصدروا ظهيراً سلطانياً من سلطان مراكش وحكومة المخزن ، وهذا دأبهم يمسحون كل ذنوبهم فى ثياب الحاكم الوطنى ، ولكن البربر قاموا على بكرة أبيهم يقاومون ذلك الظهير ، وسيكون الله والعالم الشرقى العربى لهم ظهيراً (١) .

الجزائر وتونس ومراكش :

وكانت الجزائر أول دول شمال إفريقيا التى استولت عليها فرنسا لسبب تافه وهو عدم اعتذار الداى عن ضربة مروحة صفع بها سفير فرنسا فى ساعة غضب أو نزق . وكان من جراء ذلك الحادث التافه أن فقدت الجزائر استقلالها وأوجدت فرنسا من تلك الفطة الطائشة سبب حرب وعداء Cassis Bellis واستولت على

---

(١) عن هذا الظهير انظر صفحة ٩٠ من هذا الكتاب .

البلاد بعد الحرب التى وصفناها ، وتعد الجزائر الآن من أحط بلاد العالم المتمدن بسبب إهمال تعليم أهلها وتضييق الحرية عليهم فى العمل والكسب ، والفرنسيون يعتبرونها جزءاً من فرنسا ، وليس فيها طبيب ولا عالم تلقى علومه فى بلاده ، بل يجب عليه أن ينزح إلى فرنسا ليتلقى العلم فى مدارسها .

وبعد أن استتب الأمر لفرنسا فى الجزائر ، رمت حبائلها حول تونس لأنها رأتها لقمة سائغة فاحتلتها حوالى سنة ١٨٨٠ بحجة حماية الباى من ثورة رعاياه ، وأعلنت الحماية على البلاد ولم تجد معارضاً ولا منافساً فى أوربا لأن إنجلترا كانت هى الأخرى ترنوُ إلى مصر بعين الطمع ، فمنّت بعد عامين أو ثلاث عين الدور الذى منّته فرنسا .

وفى العقد الأول من هذا القرن استولت فرنسا على الجزء الأعظم من مراكش واشتركت معها أسبانيا فى البقية الباقية .

استيلاء إيطاليا على ليبيا :

وفى سنة ١٩١٢ انتهزت إيطاليا الفرصة وهاجمت طرابلس الغرب واستولت عليها ، فتفدت بها قبل أن تتعشى بها دولة أوربية أخرى بحجة قربها إلى شواطئها ! ، وحرام عليها أن «تخرج من المولد بلا حمص » وتبقى بغير غنيمة فى شمال إفريقيا بعد

أن غنمت إنجلترا وفرنسا وأسبانيا ما غنمت من تلك الفريسة السانحة.

مقاومة دول شمال إفريقيا للاستعمار الأجنبى ، الجزائر وتونس :

وإذا وعينا ما قامت به دول شمال إفريقيا من المقاومة الحربية وأن الجزائر حاربت عشرين عاماً وأن الريف بقيادة عبد الكريم حارب ثلاثة أو أربعة أعوام وأبلى أحسن البلاء ولم يهب قوة أوربا وهى خارجة من الحرب العظمى وقد تسلحت بأعظم الأسلحة وأقتلها وأفتكها ولم تراع فى محاربته رحمة ولا شفقة وانتهت بإخضاعه وأسره بفعل القبائل الخائنة ، وأن طرابلس على ضعفها حاربت إيطاليا وقاومتها ولاتزال حتى الساعة تقاومها (بقيادة عمر المختار وغيره من المجاهدين) - نقول إذا وعينا ذلك كله ، نجد أن روح المقاومة لم تذهب من أمم شمال إفريقيا العربية الإسلامية ، وأن أوربا مهما فعلت لن تطمئن على تلك البلاد .

وفى تونس حركة قوية بدأت فى سنة ١٩٢٠ وانتهت بتأليف حزب وطنى قوى هو حزب تونس الفتاة ، وقد نشر هذا الحزب منهاجه فى سنة ١٩٢٤ فإذا به يطلب مجلساً نيابياً ومجالس بلدية تنتخب على طريقة السوفراج ينيفرسل «تعميم حق الانتخاب»

والاعتراف بنقابات العمال وتحديد ثمانى ساعات للعمل اليومى.

ويرجع الفضل في الحركة التونسية إلى السيد عبد العزيز الثعالبى وأصدقائه وإخوانه الذين اتحدوا معه فى خدمة الوطن(١).

ولأجل الوقوف على حالة تونس يجب الرجوع إلى الكتاب القيم الذى ألفه ونشره فى باريس الشيخ عبد العزيز الثعالبى سنة ١٩٢٠ باللغة الفرنسية باسم « تونس الشهيدة » ومطالبها وشرح فى هذا الكتاب حالة بلاده قبل الحماية وبعدها فى الحقوق العامة والتعليم والعدل والحالة الاقتصادية ووسائل الاستعمار والأنظمة الزراعية ونزع ملكية القبائل والصناعات التونسية ومعايب المجتمع التونسى فى عهد الحماية وإفساد أخلاق أهل البلاد بالخمر والنساء والملاهى الضارة وما وصلت إليه الصحة العامة من

---

(١) تجدر الإشارة إلى أن الأستاذ بدوى محمود حسنين قد استعان - قبل نشر هذا الكتاب - بما جاء فى هذه النبذة عن مقاومة تونس للاستعمار الفرنسى فى رسالته لنيل درجة الماجستير وموضوعها « مصر والحركة الوطنية فى تونس من سنة ١٩١٤ حتى ١٩٥٦ » ، مقدمة لمعهد البحوث والدراسات الإفريقية بجامعة القاهرة .

المخاطر والمالية التونسية ، وبالجملة شرح مؤلف الكتاب القدير تطبيق التشريع الاستعمارى الجائر على تلك البلاد التى ترمى فرنسا إلى نزعها بالقوة من أهلها وزرع المستعمرين الفرنسيين مكانهم ليتمتعوا بخيراتها وخصبها وطيب مناخها .

وما قضية فرنسا وتونس إلا قضية رومة وقرطاجنة بعد عشرين قرناً ، إلا أن فرنسا لا تحسب حساباً للزمن ولا تراعى فروق التاريخ .

ولقد كان نصيب تونس فى الحرب العظمى أن قدمت خمسة وستين ألف محارب قتل أربعة أخماسهم وأرسلت ثلاثين ألف عامل ليعمروا ولايات فرنسا المتخربة بفعل الحرب .

وكان التونسيون يؤملون أن تصدق وعود ويلسون وأن الحرب التى شهرت لإنقاذ الشعوب المستضعفة ستنتهى بإنقاذهم من الظلم الأجنبى بعد أن اشتركوا فيها بأموالهم وأولادهم ، فكان جزاؤهم توسع فرنسا فى الاستعمار بعد الهدنة ومحاربة اللغة العربية فى معاهد التعليم ومحاولة القضاء على حركة الحياة والنهوض .

وإن الناظر إلى تلك المأساة التونسية ليعلم أن فرنسا ينقصها علم نفسية الشعوب الشرقية ، فإنها طامعة فى إدماج التونسيين فى قوميتها ، وهذا محال لأن جميع الأمم التى مرت

بتونس من فجر التاريخ سواء كانت فاتحة أو مستعمرة لم تتمكن من القضاء عليهم وطمس هويتهم ، حتى شعب قرطاجنة الأجنبى الفينيقى لم يتمكن بغناه وقوته من القضاء على تونس ، بل استفاد التونسيون منهم حذق التجارة والعلوم البحرية ، كما استفادوا أنظمة الزراعة والرى والبناء والحرب من الرومان ، كما أخذوا الدين واللغة والعدل عن العرب وانتفعوا بمبادىء الحرية والإخاء والمساواة التى نشرها الترك بينهم .

ففكرة هضم التونسيين فى بطن فرنسا « وفرنستهم » فكرة خرافية أقرب منها هضم الفرنسويين فى بطن اليابان أو الصين مثلاً !

دور مصر فى النهوض بدول شمال إفريقيا :

فأنت ترى (إذن) أن قضية شمال إفريقيا هى قضيتنا ، وإذا نظرنا إلى إفريقيا نرى مستقبل أهلها قاتماً لأنه ليس لها فى أوربا أمل ولا رجاء ، وليس أمامنا إلا وسيلة واحدة لمحاربة هذا الظلام المقبل وهى **أن قوة إسلامية تنهض وتختلط بتلك الشعوب فتستطيع أن تصل إلى أعماق قلوبهم وتتمكن بذلك من أن تمنحهم مدنية إن لم تكن فضلى المدنيات فإنها بلا ريب تعدّهم إلى ماهو أرقى منها من المدنيات .**

ولا نرى قوة إسلامية قادرة على القيام بذلك العمل

الجليل إلا مصر ، فإنها تعلمت فى ذلها من أوربا ما تستطيع به فى عزها أن تصلح من شأنها وشأن غيرها .

ولكن مصر لا تنهض هذه النهضة إلا إذا كانت أمة حرة ، لأن الحرية تجعلها تقدر هذا العمل العظيم حق قدره ، فلا تكون لأمم إفريقيا سيدة غاصبة أو مرهقة ، بل تكون أختا رشيدة مرشدة على أساس المساواة والإخاء والمحبة ، وحينئذ تكون إفريقيا للإفريقيين والشرق للشرقيين .

حاجة الشرق والإسلام والعرب إلى العلم والعمل :

إن الشرق والإسلام والعرب فى حاجة إلى العلم والعمل وفى حاجة إلى تشكيلات ومؤسسات ومناهج وخطط سلمية وعلمية ، وفى حاجة إلى إصلاح اجتماعى ونهضة اقتصادية وتدريب سياسى ، لأن العظمة والزعامة لا تنال بالأمانى والحقوق لا تسترد بالقول مهما كان بليغاً أو صادقاً ، وكل من يقول غير ذلك أو دونه يكون مخطئاً أو متعجلاً ، كفانا الله شر الخطأ والعجلة !

حاجة الشرق إلى الزعماء المخلصين :

والشرق فى حاجة إلى زعماء مخلصين يقدرون الزعامة قدرها ويعملون بنيات سليمة ومقاصد شريفة دون مراعاة لمصالحهم الشخصية ، بل يفضلون المنفعة العامة على منافعهم ومنافع ذويهم، وأن يكونوا مع ذلك منوّرين

ذوى شجاعة وإقدام وأهل بصيرة وتؤدة .

التمسك بالإسلام :

ويجب على المسلمين من أهل الشرق أن يتمسكوا بدينهم ولا سيما بما كان منه ذا مساس بالاجتماع والسياسة والاقتصاد بعد أن ثبت للملأ حكمة هذه المبادىء وصلاحها لكل زمان ومكان ، وأن لا ينسوا أن الإسلام قانون وحضارة وأخلاق ونظم اجتماعية وإصلاح ترمى جميعها إلى سعادة الإنسانية ، كل ذلك بقدر ما فيه من عبادات وعقائد . ولايغيبن عن أذهان المسلمين حتى المنورين منهم والمقلدين للغربيين ، أن أهل أوربا متمسكون بدينهم التمسك كله ، ولو دانوا بالإسلام من قديم ، ما هجروه كما هجره نووه .

ويجب أن يكون الحب ديننا الأعظم ورائدنا فى أفكارنا وأعمالنا ، فإن دين الإسلام فى جوهره قائم على حب الإنسانية والبر بها والإحسان إليها ، وينبغى لنا أن نحب الناس ونصفح عنهم ونستغفر لهم لنقنعهم بدين الحب ليؤمنوا به ويتحلوا بجماله وجلاله .

ويجب أن نبغض العنف وننبذ الإرهاب وأن لا نقابل الشر بمثله ، فإن الحب والخير قوتان خالدتان وهما من روح الرحمن ، كما أن البغض والشر والإرهاب معاول

للتخريب وهى من خبث الشيطان ووسوسته .

ويجب علينا أن نستغنى بالمبادىء الثابتة فى أديانا المنزلة بالإحسان والمعونة والبر ومكارم الأخلاق ، ففيها كفايتنا ، وأن ننبذ كل ما يبدو لنا فاتناً أو جذاباً مما يزينه لنا أهل الغش والنفاق ، وأن نحذر الوقوع فى هوة روسيا الشيوعية ، فإنها لا تختلف عن روسيا القيصرية فى عداوتها للشرق والإسلام .

حوار الحضارات ، الحوار بين الشرق وأوربا :

وإذا مدت أوربا أيديها إلينا مصافحة على قاعدة المساواة والإخاء والحب الإنسانى والعمل لخير الجميع ، حق علينا أن نمدّ لها أيدينا لنتعاون معها على الإصلاح وتحرير الدنيا من قيود الفاقة والظلم والجهل والعبودية(١).

فإن الشرق يريد الوفاق مع الغرب على أساس المساواة والعدل والرخاء ، ولا ننس أن إنجلترا حالفت اليابان بعد أن أثبتت أمة الشمس المشرقة قدرتها على الكفاح فى ميدان الوجود ويجب

---

(١) كتب المؤلف هذا الكلام سنة ١٩٣١ قبل نداء روجيه جارودى بحوار الحضارات لاتصارعها بعشرات السنين ، وما أحوج المسلمين فى هذه الأيام إلى مثل هذا الحوار بعد أن انتشرت المزاعم والدعاوى بتخلف الحضارة الإسلامية عن الحضارة الأوربية وربط الإرهاب بالدين الإسلامى وخاصة بعد أحداث الإرهاب المروعة التى وقعت بالولايات المتحدة الأمريكية فى ١١ سبتمبر سنة ٢٠٠١ م (ر.ل.ج).

علينا أن نؤلف عصبة شرقية للاتحاد وأوروبا على الخير والمحبة فإن المستقبل لله وللوحدة الإنسانية فى الشرق والغرب .

وقد جاءت فى القرآن الشريف آيات مجيدة تنبىء بهذه المبادىء العامة السامية لأنها من أسس الحياة العالمية ، كقوله جلت قدرته :

« قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ... » الآية (سورة آل عمران).

« يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير» (سورة الحجرات) « وتعاونوا على البر والتقوى ولاتعاونوا على الإثم والعدوان واتقوا الله إن الله شديد العقاب » (سورة المائدة).

« ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ولايزالون مختلفين إلا من رحم ربك ولذلك خلقهم وتمت كلمة ربك » (سورة هود).

حديث أحد العلماء المجاهدين فى سبيل إنهاض الشرق :

عاد أخيراً أحد علماء الشرق العربى الذين يجاهدون فى سبيل إنهاضه [1] وهو من صميم الشرق وقد طاف أنحاء العالم

---

(١) أرجح أنه الزعيم التونسى الشيخ عبد العزيز الثعالبى حيث وفد على مصر سنة ١٩٣١ (ر.ل.ج).

العربى ، وقد قضى زهرة شبابه فى العلم والجهاد يدعو إلى الاتحاد ويبذل جهوده فى سبيل جمع الكلمة ، وهو رجل كريم الخلق قد شاب شعر رأسه وشعر لحيته وقاسى أهوالاً شداداً فى خدمة وطنه وفى خدمة الأمم العربية ، وكابد أمورا تشيب من هولها الولدان ، ولابس حوادث الشرق العربى فى أحرج المواقف التى مرت به فى الثلاثين عاماً الأخيرة ، وهو بلا ريب طاهر القلب قوى الإدراك شديد الإخلاص للقضية الشرقية ، وقد خالط الترك والسوريين وعاش بينهم وساح فى الجزيرة العربية وتولى بعض المناصب السامية فى الإدارة والتعليم ، وهو بحكم سنه واختباره يصح أن يكون حجة فى مسائل الشرق العربى ويصح لصدقه أن يكون ثقة فيما يروى عن تلك الأمم التى شغلت شئونها جماعة المنورين المخلصين ، وقد ضمه مجلس من أمثاله وكل منهم يمثل أمته ، فلما سئل عن حالة الشرق العربى كان أول رأيه يدل على الحزن مما رآه وكابده ، وقد وصف بعض الشعوب الشرقية العربية بالضعف والفساد وينعى سريان الانحلال فى عناصر تلك الشعوب ويطلب اللطف من الله والرحمة ، وكأنه يطلب من سامعيه أن يقيموا صلاة الاستغاثة .

هذا الرجل الفاضل ليس سياسياً وهو أقرب إلى النهضة العلمية منه إلى الحركة السياسية ، ولكنه خبير بالشئون التى

يتكلم فيها ، وعندما طلبت منه زيادة فى الإفصاح عن رأيه لم ينكر أن الفساد قد دبّ إلى الشرق من رأسه ، وأن علة ماهو فيه راجع إلى كبرائه وعظمائه الذين تهاونوا فى أمور الأمم إما طمعاً فى المال وإما طمعاً فى المناصب وإما جرياً وراء شهواتهم لانحطاط نفوسهم ، وهو يخشى أن تكون قد فاتت فرصة الإصلاح لأن عامة الشعوب إنما يتبعون كبراءهم وينسجون على منوالهم ولايمكنهم أن يخترطوا الخطط المنقذة لأوطانهم .

وقال إنه لو كان يعمل فى إحدى الحركات عشرة رجال من الكبراء فقد يكون سبعة أو ثمانية منهم فاسدين والقلّة صالحة فتبقى عاجزة حيال الكثرة الطالحة المفسدة !

فأجابه أحد الحاضرين وهو ممن كابدوا أمور الشرق مثله وكانت له يد فى الحركة السياسية بأنه لو سلم معه جدلاً بصحة ما يقول إلا أن الخير الكثير لايزال باقياً فى مجموعة الشعب ، وهذه المجموعة هى الخميرة التى ينتفع بها فى المستقبل ، وأنه من الخطأ البيّن أن يعتمد المصلح على الكبراء والعظماء وإنما هؤلاء الكبراء ينقادون . وضرب له مثلاً بما حدث فى سوريا فى عهد أحد أمرائها العرب ، فقد اشتم الشعب منه فى إحدى العواصم رائحة النبذبة والميل إلى الأجنبى فطلبوا منه أن يقسم

على الأمانة للأمانة ، فأقسم قسما عظيما ، واضطر أن يجارى الشعب بعد أن رأى من قوته وعزيمته ما رأى .

الخوف من استيلاء الأجانب على جزيرة العرب :

وأشد ما يخشى هذا المصلح فى الوقت الحاضر هو استيلاء الأجانب على جزيرة العرب الذى أصبح قاب قوسين أو أدنى ، وهو يرى أن شعب تلك الجزيرة فى أقصى درجات الجهل والاستسلام وحب الدنيا وتفضيل المنفعة المادية لفقرهم وجهلهم ، وهو ينتظر من وراء هذا البلاء - إذا تم لاقدر الله - هلاكاً للعرب وضياعاً لملكهم فى أنحاء العالم ، ولايجد وسيلة لرد هذه الغائلة إلا باتحاد القوتين العظيمتين السائدتين فى بلاد العرب ، قوة النجديين الذين أصبحوا أصحاب الجزء الأعظم من البلاد العربية ، وقوة أهل اليمن الذين لهم سلطان عظيم وإيمان شديد وبأس يخشى جانبه فى الجنوب العربى .

يعنى أنه لايرى خيراً ووسيلة لنجاة الجزيرة إلا فى اتحاد إمام الوهابيين ابن سعود وإمام الزيود الإمام يحيى .

وقد يرى البعيد عن الجزيرة العربية أن هذا الأمر من السهل ومن الواجب على هذين الملكين مادام فيه خير مشترك وسلامة منتظرة . ولكن يظهر أن كثيرين من العلماء الأعلام ومن

المخلصين من رسل السلام قد سعوا بين الرجلين ولم يوفقوا ، لأن كلاً منهم يرى وجوب سيادته المطلقة فى تلك البلاد ويرى نفسه أحق بالإمامة والخلافة ويفتخر أحدهما بحروبه وفتوحاته وغزواته وجهاده ، ويفتخر الثانى بعزته وقوة جانبه وطهارة أرضه من كل تدخل أجنبى . وفى تلك الأثناء يعمل أهل السياسة الأجنبية أعمالهم ويرسمون خططهم ويدنون قليلاً قليلاً من غايتهم وهى الاستيلاء على أرض العرب التى كانت مهد الإسلام ومنشأ المدنية الإسلامية ليجعلوها مركزاً لمواصلات الخطوط الحديدية بين أجزاء الممالك العربية التى يريدون استبقاءها فى قبضتهم .

وعند ذلك قال أحد الحاضرين : إذا كان الأمراء لايتحدون ، فإن الشعوب تتحد . فعجب العالم العربى من هذه الملاحظة وقال: ليس للشعب من العلم أو الإدراك أو القوة مايسمح له بذلك ، ولأضرب لك مثلا فى عهد الملك حسين ، فقد أدخلت إدارة المعارف درس الجغرافيا ، فاحتج الشعب على ذلك وقال إن هذا العلم من علوم الكفار ولم نسمع به فى الإسلام !!

وقد ضحك الحاضرون ، وشر البلية مايضحك !

ولكن أحد الحاضرين وقف ضحكهم وقال : بلى ! إن أحد هؤلاء الأمراء فى أيام الحرب العظمى كان ينشر أفكاره الحربية فى جريدة يحررها وكان يرمى عن قوس خطط الحرب ، وبعد

انتصار الحلفاء صار يباهى بأن له النصيب الأوفر فى انتصارهم بفضل خططه التى رسمها واتبعها قواد الحلفاء !! ...

وقد تعاهد بعض هؤلاء الأمراء مع الدول العظمى على مناصرتهم ضد الترك فعاهدهم رجال السياسة الأوربية وأمضوا معهم المعاهدات وأعطوهم العهود والمواثيق أنهم يتركون البلاد العربية مستقلة ولن يكون لهم إلا مرفأ البصرة . ولكن عند تصفية الحساب استبان هؤلاء الأمراء أنهم كانوا مخدوعين . وعندى أن الدفاع عن هؤلاء الأمراء بالجهل أو قصر النظر نوع من اللهو والمهاترة . **إن هؤلاء الأمراء قد غامروا بأوطانهم وشعوبهم وباعوا بلادهم بيع السماح للأجانب وهم يعلمون حق العلم أن ليس للأوربى المستعمر كلمة ولا وعد لأن السياسة ليس لها شرف كالشرف الذى بين الأفراد** ولا يعقل أن دولة أوربية تفتح البلاد وتقهر الجيوش وتبذل دماء أبنائها ثم تسلم هذه البلاد المفتوحة لأهلها الذين كانوا نائمين أو مسخرين فى الحرب بأمرها، وغاية ما يمكن أن تفعله هو مكافأة بعض الأمراء الذين خدموها بمناصب الإمارة الخيالية التى يكفيهم منها اللقب والمرتب والسلطة الصورية وتكوين الثروة لأفراد بيت الأمير ، أما أنها تعين شعباً شرقياً مسلماً كان أو غير مسلم على الاستقلال، فهذا ضرب من المحال ! وإلا فلمن كان نظام الانتداب؟

وهؤلاء الأمراء الذين نشأوا فى إحدى عواصم الشرق أو مدن الجزيرة لايهمهم أن تعيش الأمم حرة أو غير حرة ماداموا هم أنفسهم ممتعين بأبهة الإمارة ومظاهر السلطة ولم يكونوا ليسمعوا نصيحة مخلص أو صديق ، بل إن المخلص إذا حل بتلك البلاد فلا يعيش إلا شهراً أو شهرين ثم يرحل مضطهداً مطروداً .

وقد ضرب محدثنا أمثالاً ببعض الأشراف المخلصين الذين ضحوا فى الحروب الوطنية بكل ما لديهم وفقدوا ديارهم وأموالهم فى سبيل الحرية وقصدوا إلى تلك البلاد فعاشوا أذلاء ثم رحلوا عنها آسفين .

وضرب العالم الشرقى مثلاً بفساد العظماء ، قال : **إن المستعمرين إذا حلوا قطراً من الأقطار الشرقية ، قرّبوا إليهم كل الخونة والمارقين وضعفاء الإيمان ووضعوهم فى المناصب الكبيرة** ، وكلما كان أحد هؤلاء أبعد غوراً فى الدناءة والانحطاط والتجسس وفساد الذمة ، كان أقرب إلى سادته الأجانب ، وهم يربّون أجيالاً من هذا القبيل ليحلوا محل السالفين بعد أن يدرّبوهم ويعدوهم لمسايرتهم في الحكم ، ولابد أن يكون الخادم الاستعمارى مضمون الماضى، أى أنه لم يكن له يوماً من الأيام أى صوت فى المطالبة بحقوق بلاده أو الدفاع عن حريتها ،

وأن كل من اتصف بشيء من هذا مهما قل شأنه يعدّ فى نظر المستعمرين ملوثاً وجب إقصاؤه وحرمانه . **وأنهم لايقربون إلا رجالهم الأمناء ، أى الذين يمعنون فى خيانة أوطانهم.**

وطالما جاهر المستعمرون فى أثناء الكلام على مناهج التعليم أنهم لا يريدون فلاسفة ولا علماء ولا ساسة ولكنهم يريدون موظفين يفرغونهم فى قالب معين ويطلبون منهم أداء أعمال معينة، لأن الإدارة والتفكير والعمل بأيدى السادة الأجانب ، فهم لا يطلبون مناوئين يناصبونهم العداء أو أحراراً يأبون الضيم أو رجال حق يمتنعون عن أداء الباطل ، بل يريدون خدماً صمّاً بكماً يؤمرون فيطيعون ويكلفون فينفذون ويستغضبون فلا يغضبون ، وكأن بينهم وبين أوطانهم سداً أو حجاباً حاجزاً فلا يشعرون ولا يتألمون !

تقريب الغرباء عن الوطن :

وقد شاهدنا صدق هذه النظرية فى بعض بلاد الشرق ، فقد روى أحد الحاضرين أن المستعمرين كانوا يعينون الشرقيين الغرباء عن الوطن ، ويقربون فى بعض البلاد الشرقية فلول الحكام الأقدمين من أتراك وأكراد وشركس لأنهم يعلمون بالعداوة المستحكمة بين الشعوب وبينهم ولأن ابن الحاكم القديم إذا ذل أصبح آلة سهلة فى يد الأجنبى ، وإذا أعطى المال فرّط فى كل شيء فى سبيله ، ومن أمثلة استعانة الأجنبى على الشرقى بأبناء

جنسه ما حصل فى فتح مصر بالجيوش الهندية وما حصل فى فتح تونس بجنود من الجزائر وفى فتح مراكش بجنود من تونس والجزائر وفى فتح سوريا بجنود من تونس والجزائر ومراكش .

وروى أحد العائدين من بلاد الصومال أنه رأى فى بلدة أسمرة - وهى إحدى مدن الصومال التابعة لإيطاليا - كيف يجند الطليان جنوداً لحرب طرابلس ، فإنهم يجندون الجيوش المرتزقة Mercenaises من الصومال والحبشة واليمانيين بمرتب ليرة فى الشهر ويعلمونهم تعليماً أولياً فى أسمرة ثم يسوقونهم إلى مصوع حيث يشحنونهم فى السفن إلى طرابلس حيث يدخلون ميدان القتال ، فيحارب أبناء قارتهم وأبناء دينهم بعضهم بعضا . وهكذا كان يفعل الشركس ضد السوريين والدروز فى الثورة الدرزية ، وهكذا أيضا صنع الحلفاء فى الحرب العظمى وهم يسمون الجنود الإفريقيين طعام المدافع chare a' canons .

فهذه حالة غيبوبة يرثى لها . وأشد ما يرثى له عدم الإدراك وموت الضمير واندثار الوجدان حتى يصير الرجل أقل من الحيوان ويساق إلى قتل أخيه الذى ليس بينه وبينه عداوة، بل يُساق هو إلى موت مؤكد لغير سبب ولا مبدأ يدافع عنه ، كل ذلك مقابل الطعام والكسوة وليرة يتقاضاها مشاهرة إذا أبقى عليه الموت شهراً بعد شهر !!

فإن كان الحلفاء قد فقدوا فى الحرب ثلاثة أو أربعة ملايين ، فثلاثة أرباعهم من « طعام المدافع » السالف الذكر ، ماعدا الروس البلهاء الذين لم تكن لهم مستعمرات يحشدون منها جيوشاً فتعبوا هم طعاماً للمدافع والبنادق والغازات والطيارات ، وزهقت منهم فى ثلاث سنين نفوس لا يلدونها فى ثلاثين عاما!!

وقد هلك فى تلك الحرب من المصريين مليون رجل فى فرقة العمال بين قتيل وجريح وذى عاهة ، وخطب اللورد اللنبى فى لوتابارك بمصر الجديدة واعترف بأن المصريين قد أعانوا الحلفاء وكانت لهم مشاركة فى « النصر » ولكن بين الاعتراف بالفضل وبين دفع الثمن بالحرية المنشودة مسافة بعيدة !

أهمية القومية :

غير أن هؤلاء المصلحين المجاهدين بأنفسهم وأموالهم الذين يستهدفون للأخطار ويمرضون بالحمى الراجعة ويبيعون حياتهم ، ليسوا إلى الآن على هدى فى الخطة الواجب اتباعها فى إنهاض الشرق ، فقد ذكر أحد الحاضرين أهمية القوميات فى العصر الحديث وأن الدعوة إلى توحيد الكلمة باسم الدين لم تنفع فلتكن الدعوة باسم القومية .

فأجاب أحدهم بأن الإسلام جاء لمحو القوميات ، ولم يفطن

إلى أن القومية والدين لايتناقضان وأن الإسلام إنما نادى بمحو القوميات والعصبيات فى جزيرة العرب ونادى بالإخاء فى الإيمان منذ أربعة عشر قرنا ، ولكن الدنيا تغيرت وأوربا نفسها لا تجعل للمعتقد شأنا فى جانب الوطنية إذا تعارضا ، وإن وطنية المصرى لاتعطل دينه ودينه لا يعطل وطنيته ، ولعل الجيل الناشىء أقرب إلى إدراك هذه الحقيقة من الجيل الراحل أو الذى على وشك الزوال .

شح أغنياء الشرق عن البذل فى سبيل قضيتهم :

على أن هؤلاء المصلحين القادمين من الأقطار البعيدة كلهم **ينعون على أغنياء الشرق العربي شحهم وبخلهم فى سبيل قضيتهم وامتناعهم عن مد يد المعونة للعمل الصالح ، فى** حين أن أوربا تجود وتبذل الملايين فى سبيل الاستيلاء على بلادهم، ولعل حب النفس وحب المال هو الذى يعميهم ، **وهم لو أدركوا حقيقة مركزهم وما يتهددهم من أخطار الحكم الأجنبى لخرجوا عن أموالهم فى سبيل حريتهم .**

وقد ضرب أحدهم مثلاً بالعزة والإباء التى يشعر بها المحارب العارى البدن الذى يحمل رمحه وسيفه ويحمل أيضا حريته إذا قارناه بشرقى آخر رافل فى حلل الخز والديباج ومزين بالحلى

الغالية المرصعة بالأحجار الكريمة وغارق فى الزرابى المبثوثة ومتقلب فى فراش النعيم وهو فى الوقت نفسه أسير فى وطنه ، حقير فى وسطه ، مقيد بسلاسل من ذهب وفضة ولكنها سلاسل تعوق حركته وتعطل حياته . إن الأول حى يعيش والآخر ميت يمشى بين الأحياء ، والأول له كرامة وإباء والثانى مسلوب الكرامة والشرف .

العراق :

وتكلم أحد الحاضرين عن العراق العربى وعن تاريخه القديم الجليل والدور الذى لعبه مرتين فى حياة الحضارة ، فكان أول مرة مهد الحضارة البابلية والآشورية ومهبط الوحى الشرعى حيث وجد حامورابى وقوانينه العجيبة ، والمرة الثانية كان مهد الحضارة الإسلامية فى عهد الخلافة العباسية التى كانت هى والدولة الأموية فى الشرق والدولة الأندلسية فى الغرب أعظم دول الإسلام فى أبهى عصورها وأغناها وأرقاها ، وقال إنه دهش عندما وقف على نص الخطاب الذى ألقاه أحد أساتذة الجامعة المصرية فى بغداد (فبراير سنة ١٩٣١) ، فقد ذكر هذا الفاضل أن الشرقيين يدرسون علم العراق وأدب العراق وشعر بشار وأبى العتاهية وأبى نواس ويتفقهون بفقه أبى يوسف وصاحبه ويعترف بأن العراق

أنجب المعتزلة وهم فلاسفة الدين الإسلامى وأول من أنشأ علم الكلام ويتخرجون على البصريين والكوفيين فى النحو والتوحيد ، وأن معظم العلوم الإسلامية قد نما وترعرع فى ظل العراق ، وأن الفلسفة قد نبتت فى العراق وفيه ظهر إخوان الصفاء ، وأن نفسه ونفوس من معه قد أفعمت ألما لمنظر العراق الحالى الذى كان يقرأ عنه فى كتب التاريخ والأدب أنه روضة من رياض الجنة وأن ما قرأه فى كتب الأدب والقصص ملأ نفسه وعقله هو ومن معه خيالات جعلتهم يتصورون العراق ليس يدانيه قطر من الأقطار فى عمرانه وارتفاع بنيانه .

وموضع الدهشة فى هذه الكلمة البليغة أن الأستاذ الخطيب كان يظن وهو فى مصر أنه عندما يحل أرض العراق سيرى عصر هارون الرشيد ويسير من باب الكرخ إلى جسر بغداد فيعثر بالخليفة ووزيره جعفر وسيّافه مسرور متخفين فى ثياب تجار يجوسون خلال الديار ليقفوا على أحوالها بأنفسهم كما كان يقرأ فى كتاب ألف ليلة وليلة ، أو أنه سوف يدخل إلى مجلس أمير المؤمنين فيجد العرش المنصوب والطنافس المفروشة والموائد الرداح الممدودة وشعراء الرشيد وابن سريج ومعبد يغنيانه أطرب الأصوات بالبنصر والوسط وأبا النواس ينشد شعره ويلهى المجلس بمجونه.. فأين إذن السبعمائة سنة التى مضت على العراق بعد

مدنيته وعماره وحضارته ؟ وأين حروب هولاكو وتدميره ؟ وأين الفتن والحروب الداخلية وأمراء الطوائف وجنود المعتصم ؟ وأين قبل ذلك انقسام البلاد إلى عرب وعجم وسنيين وشيعة ؟

لقد بلغ الانقطاع بين أقطار الشرق أن أستاذاً عالماً من الجامعة المصرية يقرأ العلم والأدب ويحفظ التاريخ ويعى أسماء الفقهاء والنحاة والشعراء وأسماء الخلفاء ويدرك أجيال النهضة وأجيال الانحطاط وهو لايزال يحفظ فى خياله صورة العصر الذهبى ، عصر الرشيد والمأمون وينتظر أن يراه بمجرد أن وطئت قدماه أرض العراق !

لقد كان الأستاذ سليم النية بادى الإخلاص ، ولو كان ذا دهاء لأخفى ما أحدثه منظر العراق فى نفسه من الألم ، فإن مايقال عن العراق يقال عن مصر ، فإن آثار طيبة ودندرة ولقصر وفيله وأبى سمبل والدير البحرى ومدينة هابو وتمثالى ممنون والرمسيوم وقبور الملوك والبرابى فى كل ركن من أركان مصر القديمة لا تقل مع ضخامتها فى التعبير عن انحطاط مصر وضياعها ، فإن تلك الأحجار المرصوصة وهاتيك التماثيل والمسلات والأعمدة المنصوبة وهذه الكتابات الهيروغليفية الجميلة المعقدة لاتردّ غائلة ولاتدحر عدواً ولا تنصرنا يوم الجلاد .

بل إن بونابرت قد رفع مدافعه إلى قمة الهرم الأعظم وخطب

فى جنده بأن أربعين قرنا يطلون عليهم من قمة ذلك الهرم ، ولم يمنعه جلال الهرم من محاربة المماليك وهزيمتهم وكذلك لم يقو أنف أبى الهول على منجانيق الرومان فهشموه بمقنوفاتهم.

إن الماضى ذهب ولن يعود وهو تركة ثقيلة محزنة يجب أن نحترم الماضى ونمجده ولكن يجب أن ننساه قليلاً لنلتفت إلى المستقبل متطلعين إلى ما فيه من رجاء وأمل .

عصر اليقظة والنهضة وفكرة الوحدة القومية والوطنية :

إننا الآن لا فى عصر توت عنخ آمون ولا فى عصر هارون الرشيد ولكننا فى عصر مصر والعراق ، عصر يقظة ونهضة بعد نوم وخمود ، وفى ميدان العلم والحضارة والابتكار مجال لكافة أمم الشرق ، **والفكرة التى يجب تنفيذها هى فكرة الوحدة العلمية والاجتماعية فى سبيل الوحدة القومية الوطنية** ، ولا يصح لنا أن نزدرى أية حركة مهما كانت صغيرة أو مجهولة النتيجة ، فلعل وراءها أموراً كباراً .

فإن العراق وهو قريب منا على مسيرة ثمانى ساعات بالطيارة وبضعة أيام بالسيارة ، كان مجهولاً من أساتذتنا حتى تخيلوا فيه ماضيا يرجع ثمانمائة عام ، فما بالكم بأندنوسيا التى تفصلنا عنها بحار المحيط مسيرة ستين يوماً بالبخار ؟

أندونيسيا :

فقد ذكرنا[١] أن أهل أندنوسيا يسكنون ألف جريزة أعظمها جزيرة چاوة وعددهم ستون مليوناً يحكمهم شعب هولاندا الذى لايزيد عن خمسة ملايين أى أن هولاندا تحكم عدداً يقرب من سكان إنجلترا وفرنسا ويفوق عدد سكانها اثنى عشرة مرة ، وهذه الملايين الستون يحكمها رجل واحد هو الحاكم العام وهو الآن (فبراير ١٩٣١) الچهر دى جرايف وقد قرب وقت نهاية ولايته ، وقد نجت أندنوسيا فى هذا العام من الفتنة السياسية التى لم تنج منها بلاد الشرق الأقصى كالهند الصينية وغيرها ، ولكن الأزمة المالية ضربت أطنابها وأحدثت فى ميزانية الدولة عجزاً كبيراً وانتشرت البطالة بين أبناء الجزر ، وللمرة الأولى بين العمال الأجانب على قلتهم وعنجهيتهم .

ولما كانت هولاندا تستغل تلك البلاد استغلالاً ليس له مثيل فى مستعمرات العالم سيئتى وصفه فى صفحة قائمة بذاتها - فقد ألفوا مجلساً اسمه مجلس هناء الأمة ! Conseil du bien etre national ، وجعلوا له لجنة يرأسها اقتصادى اختصاصى هو فلنستين المحترم ، فقدم تقريره ينعى فيه البؤس والفاقة اللذين

---

(١) انظر صفحة ٩٤ من هذا الكتاب .

أرغما صغار الفلاحين على هجر حقولهم بعد أن أفلسوا وفقدوا كل ماكانوا يملكونه من مال ، وقد تبين له ذلك من فحص دفاتر القرض الحكومى ، فإذا أهل البلاد لا يستطيعون الاقتراض لخلو أيديهم مما يرهنونه فى سبيل القرض ، ونظام القروض والزرع لحساب المستعمر الهولندى يضمن القوت والكساء للزارع الأندنوسى ويحوّل المحصول إلى المخزن الأجنبى العام ويخرج الفلاح الإندنوسى بعد ذلك بيد فارغة والأخرى لا شيء فيها ، خاوى الوفاض ، بادى الأنقاض !

غير أن الباحثين فى الشئون السياسية من الهولنديين لم يخف عليهم إرجاع هذه الحالة إلى أسباب سياسية كتضخم الوظائف الحكومية التى يشغلها الهولنديون ، وهى تستغرق جانباً عظيماً من الميزانية والإصلاح الإدارى المرهق للميزانية وهو لم يؤن أوانه، ونشر التعليم الثانوى والعالى بدلاً من التعليم الأولى ومنح بعض الحقوق للشعب وهو لايزال فى حالة الطفولة لا يدرك واجباته (كذا!!).

ويظهر أن هذه الإصلاحات الضئيلة التى أدخلها الحاكم دى جرايف بعد أن رأى ضرورتها لتهدئة الخواطر ، قد هاجت سخط الصحافة الأوربية الاستعمارية ، فحملوا على هذا الحاكم ووصفوا أعماله بأنها خيالية ومنطبقة على المثل الأعلى (للسخرية منها !) أكثر من انطباقها على مبادىء الاستعمار التى غايتها الاستثمار

وهلاك الشعب الشرقى . ولم يريدوا أن ينسبوا هذا الفضل أو هذه النقيصة إليه ، فادعوا أنه إنما تلقاها عن أحد أسلافه فى الحكم كونت دى لبرج شتيرم ، وكان من تشبّع دى جرايف بأفكار شتيرم أنه ضعف أمام مطالب الوطنيين الأندنوسيين وفرط فى حقوق دولته ونفوذها ولا سيما فى خطبته التى ألقاها فى هانوى عندما زار حاكم مستعمرة الهند الصينية ، ففسرها الوطنيون الأندنوسيون بأنها وعد بالحكم الذاتى المطلق ، فقامت قيامة الصحافة الهولندية على الحاكم دى جرايف وناشدوا خلفه الذى سوف يحل محله بعد بضعة أشهر أن يسلك سياسة عملية نشطة ، يعنى أن يفعل عكس ما فعله دى جرايف ويحتقر مطالب الوطنيين ويمحو حسنات سالفه إن كانت له حسنات ويستعمل اليد الحديدية!

وهم الآن يرشحون رجلين أحدهما الجهر بلارتس وهو أقرب إلى التعيين من سواه ، ولكن جريدة « الجمين هندلز بلاد » لا ترى أحداً أليق بالخلافة من الدكتور لوليچن ، فهو رجل الساعة الذى سوف يعيد نفوذ هولاندا إلى نصابه !!!

السياسى المحترف :

ليس أضرّ على قضية البلاد الشرقية العربية من السياسى المحترف الذى يلعب بالمبادىء ، وإن الذين يلعبون بالمبادىء يلعبون بالنار التى تحرق سواهم وقد تحرقهم .

وقد بليت مصر بقصر الذاكرة ، فهى أبداً تنسى المسىء إليها بأسرع مما تنسى المحسن ، وقديماً قالوا الوطن غفور رحيم!، ولكن الوطن غفور رحيم إذا لم يكن هناك عدو أجنبى وإذا كان الذنب المقترف قد وقع عفواً أو بحسن نية . أما الذين يخطئون وهم عالمون ومصرّون ، فهم لا ينصلحون ، والذى يخون مرة يخون مراراً .

وقد رأينا فى مصر وفى الشرق العربى كثيرين من هذا النوع الخطر وهم يتاجرون بالمبادىء والعواطف ويسكّون شعور الأمة قروشاً ودراهم ودنانير ويكنزون الثروة من دماء الشعب ويندبون حظ الأمة على المنابر أو بين المحابر والأقلام، وهم ينتفعون مما يندبون . هؤلاء المرتزقون هم الذين وصفهم چونسون بأنهم يلجأون إلى الوطن عند خيبة آمالهم فى سواه، وهؤلاء يبقون معك ويناصرونك مادمت تدهن أكفهم بالشحم وتملأ أشداقهم باللحم ، ولكن إذا كففت عن هذا أو نضب معينك ، فهم من الغداة عليك ثم مع الناس كلاعب الشطرنج يأخذ كل مامعهم ويحفظ كل ما معه !

وإن أنفع ما يعود على هذه الأمة بالخير ، مواجهة الحقائق وإن كانت مؤلمة والكشف عن أخلاق هؤلاء الناس الذين يغررون بالعامة ويسوقونهم إلى الهاوية .

الصراحة فى الحق وخدمة الأمة :

إن خدمة الأمم لاتكون بالمواربة ولا بالمخاتلة ، بل تتطلب الصراحة التامة المشفوعة بالحذر ، الصراحة فى الحق ، والحذر من أهل الغدر . إن الصراحة أمر واجب ممن ترتاب فيهم بحكم ماضيهم ، وطالما قضى الخجل والمجاملة على الآمال والمبادىء . فقد ترى فى مصر جماعة أجمعوا على القدح فى شخص وتبين نقائصه ، ويكونون صادقين فى سخطهم عليه، مصمّمين أفراداً على مجابهته بما يعيبه ، فإذا حضر أو لقوه وهم فى مجلسهم ، أقبلوا عليه هاشّين باشين مرحّبين ، وقد ينقلبون له فى حضرته محبذين مكرمين ، فتبقى حيال هذا المنظر العجيب مبهوتاً دهشاً ، وليس لك إلا أن تقلدهم لئلا ترمى بسوء الأدب أو بالخروج على الجماعة !

أهذا كرم أخلاق أم مجاملة أم فرط تسامح أم جبن وخور وانحلال فى الخلق لامبرر له أم نفاق ومداهنة ؟

إن الجماعة يخشون هذا الشيخ أو الأفندى ، يخشون لسانه أو بنانه أو يخشون وشايته وفتنته ، وكل واحد منهم يقول : « يارب نفسى !! »، وكل واحد منهم يريد أن ينجو بجلده أو فروته !

وقديماً رووا عن القرويين الذين اتفقوا فيما بينهم على أن يشكوا إلى « الأغا» أو « حاكم الخط » جمله لأنه يعيث فى حقولهم فساداً ، فلما ذهبوا إلى الأغا ، أخذوا ينسلّون واحداً واحداً إلى أن بقى رجل فرد صمد لتلك المعركة ، فقال له الأغا :

- ماذا تريد ؟

قال : الجمل !

قال : ماذا بالجمل ؟

قال : نريد له ناقة !!

هل انقلب كل خائن وكل نذل وكل غادر فى هذه البلاد إلى «أغا» نخشاه ونجامله فى جمله وناقته ؟! وهل ماتت الصراحة فى نفوسنا ؟

ألا نعلم أن مقاطعة أحد هؤلاء الأنذال جهاد ضد النوع كله، وفى أى زمن نعيش نحن حتى نخشى هذا وذاك وهؤلاء وأولئك ؟ كم يكون عدد سادتنا حتى نعرفهم ونقدم لهم فروض الاحترام ؟ ، ومتى وأين وفى أى بلد انقلب اللئام والخونة سادة يخشى جانبهم وتراعى خواطرهم وتصمت فى حضرتهم الألسنة التى كانت فى نقدهم مبسوطة ؟

ألا إن هذا مجتمع منحط ، الذى يستبيح الضعف أمام الخونة !

إن الرجل الذى يخطىء فى حق قوم فى أوربا مرة واحدة لا تقوم له قائمة ولا ينهض ، ولكن الرجل الذى يخطىء فى حق قوم فى مصر لا يسقط بل تقوم له قوائم لا قائمة واحدة ! لأن القوم يظنون أنه خائن ينتمى إلى قوى ، والقوى يطيعه لأنه عينه التى تنظر وأذنه التى تسمع ويده التى تبطش ، وإذن فهو يضر وينفع ، وإذا أظهر الرجل رأيه فى صراحة وحق ، وكان الحق فى جانبه ، فإنهم ينتقدونه لصراحته ويتهمونه بالتسرع والاندفاع وهم لم يتعودوا التسرع والاندفاع ويريدون التريث والكمون لأنهما يخفيان اللؤم والغدر والنفاق ، والرجل القدير فى نظرهم هو الذى كالماء يتلون بلون الإناء الذى يحتويه ، الرجل الحلو المذاق اللين العريكة الذى تضع يدك فى يده فتشعر بأن ثعبانا يصافحك ، أما الرجل المر الشديد ، فهو جاف قاسٍ ليس له صديق ولا يحبه أحد . إن التهاون فى نظرة وابتسامة يجر إلى التساهل فى حق وكرامة أمة ، والتشدّد فى قول وإشارة قد يؤدى إلى سلامة مملكة .

إن الرجوع بالشرق العربى إلى ماضيه الجليل أو تقليد أوربا فى نهضتها لا يكونان بالنعومة والطراوة والزيغ والمراوغة والخنانة والانطواء ، وإنما يكونان على الأقل بتقليد الرجال الذين صنعوا ماضى تلك البلاد . لقد

كانوا رجال حق وعزم وتضحية ، لا رجال تردد وانحلال.

لقد كان الزعماء فى مصر من ثلاثين عاماً وخاصة الخواص هم الذين يتكلمون فى الأخلاق ويشتكون من الوهن الذى حل بها والتدهور الذى أصابها ، ويهمسون بملاحظاتهم همساً خشية أن تذيع آراؤهم قبل أوانها وخوفاً منهم على مباغتة الضمير العام ببعض الحقائق المؤلمة ، فكنا نسمع مرّ الشكوى من نجاح الأوغاد والسفل ، وبوار الأفاضل وأهل الأخلاق ، وكان أحدهم يقول : «هذا بلد يفوز فيه الغدر والكذب واللؤم ويفشل فيه الوفاء والصدق والكرم!». وكانوا يتذمرون من ذهاب المروءة وانحطاط النخوة وتخاذل الإخوان وانتشار سوء الظن وذيوع الارتياب وندرة الصداقة وانعدام الأمانة فى المعاملة ، وتخلى الأصدقاء عن أصدقائهم عند الشدائد ، وانصراف الناس عمن تولت عنه الدنيا ولو إلى حين .

وكان الوزير الذى يعتزل الحكم يهجر منزله وتقفر داره حتى إن قصر رياض باشا كان فى أيام بعده عن الحكم كاد يكون مهجوراً إلا من أفراد قلائل يزورونه وهم يمتنّون لا بألسنتهم بل بحركاتهم وابتساماتهم وكأن لسان حال أحدهم يقول : « انظر يا عطوفة الباشا ها أنا ذا أزورك على انفراد وليس معنا أحد ، وما ذلك إلا لفرط وفائى لك لأننى لا أرجو منك خيراً بعد أن انقطع

خيرك وضيرك وذهبت عنك الوزارة وأعرضت عن بابك الإمارة!!»٠

ولما أراد الله الستر لهذا الرجل (رياض باشا) الذى لا أبحث فى تاريخه السياسى ولا أمدحه ولا أنتقده ، وحان حينه وخشى حسن طالعه أن يموت وهو فى الانزواء فلا يشيع جنازته أحد سوى وكيل دائرته وأقاربه والمولوية ، ظهرت بدعة المؤتمر المصرى (سنة ١٩١١ بمصر الجديدة) وانتخبه المرحوم سعيد باشا لرابطة المصاهرة - رئيساً لذلك المؤتمر ، فإذا بقصره يعود إلى حالته الأولى من إقبال الوفود وانقلاب الزائرين نحو داره فى الحلمية حتى شعر الرجل بأن سلطة العهد القديم قد عادت ٠ ومات غفر الله له ورحمه فى وسط هذه المعمعة ، فذكره الناس وشيعوه فى جنازة حافلة ! ولولا « المؤتمر المصرى » الذى ساقت رياسته إليه بختمة سعيدة ، لما فكر فيه أحد !

فأى قوم نحن ؟ ومن أية طينة أو عجينة خلقنا ؟!

لقد زعموا أن الاحتلال الأجنبى هو الذى ابتلانا بهذا الانحطاط فى أخلاقنا وأنه هو الذى امتصّ ماء الكرامة والحياء من وجوهنا ، وهو الذى سخر ضمائرنا للشخص الحاضر والشخص القوى وجعل أعزتنا أذلة ، لأن هذا الاحتلال انتقى الأوغاد وسوّدهم وغمط الفضلاء وطردهم وإن كان لاينكر فضلهم ، ولكنه ليس فى حاجة إليهم لأنهم أعداؤه بالفطرة ٠

اتهام الشيخ محمد عبده بممالأة الإنجليز :

ومازال المرحوم محمد عبده متهما بممالأة الإنجليز والسعى لديهم حتى مات فظهرت براءته ، لقد مات وهو يتردد على كرومر ويزوره ويخالطه ويحادثه و « العميد » - كما كانوا يسمونه لأن بعض الصحفيين الشرقيين وظيفتهم أن يخترعوا الأسماء للسادة الأجانب - أقول و« العميد » يحترمه ويقربه والناس لاتدرى السر ، وربما كان يعلمه الخاصة ويجهله العامة ، لأن الشيخ رحمه الله كان أبيّا عيوفاً لا يكثر من الإفضاء بأسراره إلا لخواصه وهم موضع ثقته .

ولكن بعد أن مات ودفن فى قبره أراد الله نشر فضيلته على لسان دى جورڤيل مؤلف كتاب « مصر الحديثة » (١٩٠٥) ، فظهر هذا الكتاب وفيه حديث محمد عبده وهو ينقم على الاحتلال وعهده وظلمه وينقم على وزارة « الخشب المسندة » أو الصم البكم التى لزمت كراسى الحكم أربعة عشر عاماً .

وحينئذ فقط قال الناس : رحمه الله لقد كان وطنياً حراً ولكنه كان يكتم ذلك ليبقى مستنداً إلى الإنجليز خوفا من الأمير الذى كان يبغضه ويحقد عليه ويسمع فيه وشاية أعدائه .

أرأيت هذا اللف والدوران فى تلك الأمة البائسة ؟

أهذا كله من الاحتلال أم من خلقنا الشرقى ؟

اتساع دائرة التذمر فى مصر :

لقد كان هذا التذمر من الانحطاط الخلقى محصوراً فى دائرة ضيقة من الخواص ، والآن قد اتسعت دائرة التذمر وأصبحت تسمع هذه الشكوى من كل إنسان تقريباً فى مصر ، وتتخيل كل متحدث لك صادقاً وغيوراً على أخلاق وطنه ، وتدهش من كثرة الناقدين وقلة المنفذين السالكين سبيل التضحية إلى الخلق الكريم، إلى الصدق ، إلى الصراحة ، إلى الحق.

الدين والأخلاق :

لقد عاش بعضنا فى أوربا وهى أمم راقية ، فلم نجد فيها هذا النفاق وهذا الرياء المزريين بذويهما ، رأينا أدب العشرة والمجاملة والغض عن الهفوات ، فما هى الأداة التى استعملوها فى هذا السبيل ؟ أهى الحرية القومية ؟ أهو الشعور بالقوة ؟ أهو الدين المسيحى ؟ أم هى ذلك كله ؟

إن كان الدين المسيحى قد هذّب نفوس أهله بالتسامح والموعظة الحسنة ، فإن الدين الإسلامى لا يقل فى هذا السبيل بل يزيد ، وقد قال النبى : « جئت لأتمم مكارم الأخلاق » ، وفى القرآن مدح للنبى بأنه على خلق عظيم ، وفى كل سورة من سوره وفى كل حديث من أحاديث محمد حث على الفضائل والكمالات

والصدق والأمانة والحق والعفة ، فأين نصيبنا من هذه البركة العظيمة ؟ وما الذى ذهب بها من نفوسنا وهى لاتزال بين أيدينا ولم ترفع إلى السماء وكثيرون منا يحفظونها عن ظهر قلب ، ونحن نسمعها فى مجالس القرآن وفى المساجد والمكاتب والمدارس وعلى ألسنة الناصحين ؟ هل نضب المداد وجف القلم ، أم صمّت الآذان وعميت الأبصار ؟

وأية دعوة إلى مكارم الأخلاق نطلب بعد الذى نراه بأعيننا ونلمسه بأيدينا من بوارنا وسقوطنا وانحطاط همتنا ؟

أهى المرأة المسلمة المصرية فى بيتها وهى تلقن أبناءنا وتحبّذ لهم الرذائل ؟ أهى المرأة المتعلمة أم المرأة الجاهلة ؟ أهى حال الأسرة أم أنظمة التعليم ؟

لا ينقصنا إلا أن نستنجد الحكومة لتصلح أخلاقنا كعادتنا فى كل صغيرة وكبيرة فتسنّ لنا تشريعاً فى الأدب القومى !!

إننى لا أؤمن بالوعظ ولا أنتظر منه خيراً ، **ولا أؤمن بكتب التعليم** التى نقلت عن غيرها وتلقن فى المدارس تلقينا ، **ولا أؤمن بالمتكلمين فى المجالس** وهم لا يذكرون إلا مساوىء المجتمع وهم أفراده ، **ولا أؤمن بالصحف والمجلات** لأنها أدوات كسب وتجارة وترويج دعوات لا علاقة لها بالأخلاق .

إنما أؤمن بالقدوة الحسنة ، أؤمن بالمثل الصالح فى الأسرة والمدرسة والسوق والمكان العام .

هذه هى الفكرة وعلى العاملين تنفيذها .

إن الأخلاق التى تعلمناها فى الكتب وسمعناها من أفواه العلماء والشيوخ وقرأنا فى المدارس أنها أساس حياة الفرد والجماعة إنما هى صور لفظية مرسومة ومثل جامدة لاتفارق بطون الكتاب والشعراء ولا تتعدى أفواه الواصفين البلغاء .

وتلك الفضائل التى طالما تغنينا بها وتغنى بها غيرنا تقليداً للسابقين والسالفين نسمع الآن بها ولا نراها ، الصدق . الأمانة الاستقامة . القناعة . الشرف. العدل . الصراحة . العفة . قد فتنتنا بأوصافها ومناقبها حتى إذا تركنا السجلات التى ملئت بمدحها والحث على التمسك بها واتجهنا نحو العالم والحياة الصحيحة لنبحث عنها ونتمتع بها ونعيش فى كنفها ونسعد فى ظلالها ، لم نجدها بل تخبطنا فى دياجير الظلام ووجدنا عكسها فى طريقنا وفى حياة الأفراد والجماعات ، فى بيوتنا وفى مؤسساتنا وفى الشرائع المسنونة ثم ننتهى بفقد تلك الفضائل فى أنفسنا .

بل إنك على الضد تجد الأقوياء تسلحوا بنقيضها فظهروا فى ميادين الحياة وصالوا وجالوا وتمكنوا فى الأرض وغرسوا

رماحهم فى أركانها وساعدهم الدهر وأيدتهم الحوادث وانضوى تحت ألويتهم معظم الناس ، إما قهراً وإما اختياراً .

وإن أنت وجدت فريقاً ممن لايزالون فى غفلتهم وقد تمسكوا بما يسمى فضائل وكمالات وأخلاقا سامية ، فسوف تجدهم أشقياء بائسين ملومين محسورين ، نكرهم خامل وجهودهم مضيعة ونجمهم فى هبوط . ولم تكن الخيبة مقصورة عليهم ، بل إنها لتمتد إلى كل من كان سليم القلب ، حسن النية طاهر النفس، حى الضمير ، عفّ اليد ، نظيف اللسان ، نقى العرض ، وتلك لعمرك خصال فطرية ليس من السهل أن يتخلص منها بالمران ، بل تراها أبداً تغلبه على أمره ، فيقول لك المسكين وهو خجل : لو حاولت الكذب أو النفاق ما استطعت أن أكون كذوباً أو منافقاً ، فترتد مقتنعاً بأن الميدان خال من الفضائل وهى التى تكتسب بالتربية والتهذيب ، وخال أيضاً من الرجال الفضلاء بطبيعتهم لأن النظم السائدة تطاردهم وتقصيهم وتخفت أصواتهم وقد تخمد أنفاسهم .

أعود فأقول [١] أين إذن ذلك الشىء الذى يسمى « الخير » ؟ ولم يتلاشى فى هذا المجتمع أو يتوارى ويترك المجال للشر ؟ وإن

---

(١) انظر صفحة ٣٤ ، ٣٥ من هذا الكتاب .

كانت هاتان القوتان تتبادلان الظهور فى العالم والتجلى على الخلق فى فترات متتابعة ، فمتى كانت سيادة الخير ؟ وفى أية بقعة من بقاع الأرض ؟ ومتى بدأت دولة الشر ؟ وكيف عمت أنحاء العالم ؟ وهل يكون لها زوال ؟ وهل تعود قوة الخير لحكم العالم والإنسانية من جديد ؟ أم أن الخير لا يجد مجالاً لسيطرته فى عالمنا الأرضى فتخلى عن عرشه لسلطان الشر إلى الأبد ؟

فما قيمة قولهم : « دولة الباطل ساعة ودولة الحق إلى قيام الساعة » ، أكلمة مسجوعة جوفاء لا معنى لها ؟ أين دولة الحق ومتى سادت وكيف تسود ؟ ومن هم رجالها ومن أنصارها ومن ذا الذى يذود عنها ؟

أما دولة الباطل فماثلة أمامنا فى كل زمان ومكان ، وهى الدولة القائمة والسلطة السائدة الحاكمة فى العالم من أقصاه إلى أقصاه وعلى مر الأجيال والعصور .

الأمم وقوة الأخلاق :

إن الدول القوية لا تقوم علي أفراد ضعفاء ، وقوة الحكومات لا تغنى عن قوة الشعب ، والشعب لا يكون قوياً إلا بأخلاقه .

وفى الشرق العربى عامة - ترى الأخلاق فى الحضيض ،

وأعظم مظاهر الضعف فى المعاملة ، فترى الثقة قد نزعت من القلوب ولا تجد الوفاء بالوعود حتى عند أهل التجارة الذين هم أخلق الخلق بالوفاء ، حتى إن رجلاً قال مرة : إنى لأدهش من استمرار الحياة الاقتصادية فى الشرق العربى على ما أعلم من فساد أحوال الأفراد !

وليس لهذا تفسير سوى بقاء الحركة بقوة الاستمرار والاندفاع ، فالتاجر الشرقى العربى المسلم أقرب الناس إلى غش عملائه فى البيع والشراء ، سواء فى القرب والبعد ، وزعزعة الثقة من القلوب جعلت الحياة الاقتصادية فى خطر ، وأساس هذه الحال فى الطمع والجهل ، لأن التاجر لو علم مايعود عليه من المنفعة فى الصدق والأمانة ، ما كان ليلجأ قط إلى ضدهما وهما الكذب والخيانة ، وفيهما ما فيهما من جراثيم الخسارة والفشل . وقد أدى الطمع إلى البخل ، فأصبح الغنى يضنّ بأمواله ، وزعزعة الثقة من القلوب حالت دون تأليف الشركات التى هى أساس النجاح فى الأقطار الغربية ، فأصبحت الأعمال الفردية ضعيفة عاجزة حيال مشاريع الغرب فى التجارة والصناعة ، وأصبح الفرد الشرقى عرضة للهلاك والاختفاء من سوق المعاملات، وهكذا ينقض البناء حجراً حجراً إلى أن يزول من الوجود .

وإنك لا تأخذ من أهل الشرق عامة ومن أهل مصر

خاصة إلا الكلام العذب والحديث الطويل والأساليب المنمقة والوعـود الخـلابة والخطب الرنانة ، وهم يعطونك من طرف اللسان حلاوة ويروغون منك كما تروغ الثعالب والذئاب والثعابين والشياطين والمردة ! لأن كفايتهم تنتهى عند الكلام وألسنتهم تعمل كالمحركات الكهربائية ، **ولكن العمل عندهم فى حيّز العدم ، وهمتهم فاترة وإرادتهم فى الخير معدومة** ، بل إن الخير نفسه كما أوصت به الأديان أو توحى به الإنسانية لا وجود له فى قلوبهم .

وقد يقول شاعرهم أو خطيبهم فى الأخلاق مايعد حكمة رائعة أو قولاً مأثوراً ، أو ما قد يسير مسير المثل ، ولكن القائل نفسه هو المثل الأدنى فى الأخلاق ، وإن كان يؤخذ مسلكه نموذجا كان البلاء العميم !

وقد ترى الشجاعة اللفظية ولا ترى الشجاعة الخلقية أو الشجاعة الأدبية ، حتى مايطلق عليه الأتراك « الجسارة المدنية » لا وجود له عندنا !

وماذا تطلب من أقوام لاتحركهم إلا المصلحة المادية والمصلحة العاجلة ، بحيث أصبحوا لايحركون ساكناً إلا لجلب المنفعة السريعة بدون نظر إلى الكيان الأدبى أو المعنوى.

إننى لا أنكر وجود بعض الفضلاء على أخلاق كريمة ، وهؤلاء

نادرون جداً ، وقد يفسدهم الوسط لأنهم يجدون فيه عكس ما فى نفوسهم ، وقد يلجئهم مايرونه حولهم إلى الإقلاع عن مكارم الأخلاق لأنهم ليسوا آلهة ولا ملائكة ولا أبطالاً ، ولكن عندهم بقية باقية من فضائل كسبوها بالوراثة أو بالدرس ، وتراهم ينفقون من هذه الكمية فى كل يوم وفى كل ساعة إلى أن تنفد . فإن الأخلاق الطيبة كالكهرباء يجب تغذيتها باستمرار ، فالعائش فى وسط فاضل يغذى نفسه باستمرار بالفضائل من المشاهدة والمعاشرة والمراقبة والأسوة والقدوة ، وهو أبداً يرى المثل الأعلى فيمن حوله ويخشى الظهور بمظهر المخالف . أما فى الشرق فإن صاحب الأخلاق يستمد من رأسماله الخلقى ولايزال ينفق منه حتى ينفد ... ينفد الصدق وينفد الوفاء وينفد الإيمان ولا عتاب عليه ولا ملامة ، فإنك لا تستطيع أن تطالبه بأكثر مما يستطيع ، وليس هذا الزمن زمن المعجزات حتى ترى الرجل الطيب أو الفاضل يرى من حوله كل أنواع المثبّطات وينوق صنوف الغدر والكذب والوقيعة ثم يبقى هو على حالته الأولى فى الصدق والأمانة والوفاء .

وكيف تطلب منه أن يكون وفياً فى زمن أصبح الغدر فيه منتشراً أو صادقاً فى مكان نشر الكذب عليه أعلامه ؟

ألا إن الوفاء مع أهل الغدر غدر ، كما أن الغدر مع أهل

الغدر وفاء !

لقد كان مجال الفضائل فسيحاً عندما كانت الفضيلة مقدورة قدرها ، وعندما كانت الأخلاق الكريمة يكرم صاحبها ويقتدى به . أما فى عهدنا الحاضر لانتشار الرذيلة أصبحت الفضائل نفسها مرذولة لبوارها ، وأصبح المتمسكون بقشور الأخلاق موضع السخرية والهزؤ ! وقد ترى لفيفاً من الناس جمع الشر كلمتهم قد تعاونوا وتآلفوا وتحابوا وأخلصوا لبعضهم بعضاً وبذل أحدهم لصاحبه أعظم وأغلى ما يملك ومدّ له يد المعونة فى كل الظروف ، فى حين أن أهل الخير لايزالون فرادى كالمنقطعين عن القافلة ، يصرخ كل منهم فى ناحية ولا يلتقون ولا تجتمع لهم كلمة ، وإن هم اجتمعوا فما أسرع انحلالهم وتفككهم وذهاب ريحهم وضياع كلمتهم ، وما أسرع انفصالهم وتخاذلهم ولو طال أمد اجتماعهم فلابد أن يكون ذلك من مؤثر خارجى ، أما أنفسهم فخاوية خالية من عناصر الاتحاد والألفة ، وهم على ماهم فيه من الخير والشكوى من الغير يسيئون الظن بأنفسهم وبإخوانهم ، ويتوجسون الشر من أنفسهم ، فالواحد منهم لايثق بنفسه حتى يثق فى أخيه، ولا يحسن الظن بنفسه حتى يحسن بأخيه ولايرجو الخير فى نفسه حتى يرجوه فى أخيه !

فهذا بنيان الأخلاق قد تهدم كما تهدم من قبله بناء الدين

والعقيدة ولم يبق أمامنا إلا أفراد وأشباح قد خلت من النفوس والقلوب وأصبحت أدوات آلية للحياة المادية الفارغة .

الإسلام فى إفريقيا :

لو أننا نظرنا إلى أهل قارة أفريقيا لرأينا الإسلام سائداً بينهم سيادة تامة ، ففى إمارة سوكوتو قام ذلك الدين بخدمة جلّى لشعبها وظهر الإسلام بينهم بأجمل مظاهره ، فإن آداب الإسلام المنطوية على الكرامة والوقار وجدت أرضاً خصبة فى نفوس هذا الشعب الفيلانى الذى يمتّ بحبل القرابة إلى الشعوب السامية ، وترى أمة سوكوتو تنفذ أوامر الدين العربى وتعرض عن نواهيه بالحرف ، ولم يصدر عنهم فعل يدل على تعصب أو عدم تسامح ، **والفضل للإسلام فى تمدين إفريقيا وتهذيب شعوبها حتى إن المبشرين أنفسهم وقد فشلوا فى إفريقيا ينظرون إلى انتشار الإسلام فيها بعين الرضا** (انظر مؤلفات بوزورث سميث وإسحاق تيلور سنة ١٨٨٧ وعن تاريخ المعتزلة فى الإسلام، ص ٢٨٤ تأليف روبرتسون سميث).

الفرق بين العرب فى صدر الإسلام والقبائل البربرية فى أوروبا :

لا ريب فى أن العرب فى صدر الإسلام وفى إبان فتوحهم كانوا متحلّين بالذكاء وبعد النظر والشجاعة ، ولم يكونوا فى

غزواتهم التى هجموا بها على أمم الشرق والغرب مثل القبائل التى هاجمت أوربا فى القرون الوسطى سواء من الشمال أو الشرق والغرب ، فإن تلك القبائل من البرابرة التى هاجمت أوربا مثل الفرانكس والڤيكنج والڤاندال والقوط كانوا يرمون إلى الأسلاب والغنائم ، فكانوا يغزون ويخربون ولا يتركون وراءهم مدناً ولا حقولاً .

ولكن العرب كانوا يفتحون ليمدّنوا ويحضّروا ويساعدوا على تنظيم أمور الشعب المغلوب ويتعاونوا معه فى الصناعات والعلوم والتجارة ، فكانت فتوحاتهم أعمال تعمير لا تدمير وأعمال بناء لا هدم وتعاون لاتهاون وتنوير وتدبير ومجاهدة ومساعدة فى سبيل خير الأمتين الفاتحة والمفتوحة .

أما القبائل البربرية فكانت مع قوتها الحربية من الضعف الخلقى والمعنوى بحيث تندمج فى الأمة المغلوبة وتنتحل عقائدها وتتخلق بأخلاقها . وهذا هو الفرق بين تلك القبائل وبين الإسلام . **فإن العرب مع حداثة عهدهم بالمدنية كانوا يدخلون الممالك ويقيمون فيها وهم محتفظون بشخصيتهم وهويتهم ومعتقداتهم ولغاتهم ، وتلك الشعوب التى خضعت لهم تندمج فيهم من تلقاء نفسها وبغير دعوة ولا مغالبة ، بل لأنها ترى الخير فى هذا الاندماج .**

المستعمرون المحدثون :

وقد سلك المستعمرون المحدثون هذه الخطة فى مستعمراتهم ، فترى الإنجليزى فى الشرق وأفريقيا يعيش مترفعاً مبتعداً عن الشعوب التى يحكمها ولا يخالطها إلا مخالطة السيد بالمسود ، فلا يصاهرها ولايعاشر طبقاتها ولا يعطف عليها ولا يتودد إلى أفرادها خشية أن يندمج فيها ويتلاشى شيئاً فشيئاً كما حصل لغيره من الفاتحين ، ولا سيما وأنه ليس لديه دين جديد كالدين الإسلامى الذى صان العرب فى أول عهدهم عن ابتلاعهم فى الأمم المغلوبة ، ولذا ترى الإنجليز ينظرون إلى الأولاد المزدوجى النسب من أوربى وشرقية أو شرقى وأوربية نظر المهانة والاحتقار ويسمونه « يوراسيان » أى نصف ونصف ولا يثقون به ولا يرحبون به ويعتبره بعضهم كالكلب الضال لا شرقى ولا غربى !

سماحة الإسلام وأسباب الانحلال السياسى :

ولقد أظهر الإسلام من التسامح مالم تظهره عقيدة أخرى ، فإن الخليفة المنصور على تشدّده وتمسكه بالدين تمسكا يضرب به المثل ، فقد حجّ خمس مرات مات فى الأخيرة منها وغزا وبنى للدين مجداً خالداً ونصر الملة فى ناحيات عدة ، إلا أنه كان متسامحاً فلم يخذل أحرار الفكر المعتزلة وساعد العلماء وأمر بنقل علوم اليونان إلى اللغة العربية .

وقد علا نجم الإسلام في عهد العباسيين من خلفاء المنصور كالهادى والمهدى والرشيد والمأمون إلى أن جاء المتوكل وكانت الدولة قد تطرق إليها الانحلال السياسى من جهات ثلاث :

الأولى من الوجهة الاقتصادية حيث كان الفقر عاقبة كل ظلم سياسى .

والثانية من الوجهة التأسيسية حيث دبّ الشقاق بين كل فريق من الأمة وصارت طوائف ، لكل طائفة نزعتها .

والثالثة من الوجهة الإدارية حيث يختل نظام كل دولة مؤسسة على الحكم المطلق ويدب فى كيانها الفساد .

وقد أدرك مؤرخو الإفرنج الارتباط بين سقوط الدولة وضعف الروح الدينى وتزعزع الإيمان فى قلوب الأمة .

فإنه فى عين الوقت الذى بدأ الاضمحلال السياسى ، ظهر أمثال المعرى والخيام وادعى المتصوفون أنهم يصلون إلى الله بغير القرآن ، وقال البعض بأن الدين لا ينفع إلا العوام فى تدبير شئونهم وأن الخواص فى غنى عن أوامر الدين !

ولم يجىء عصر المعتمد والمعتضد إلا وقامت القيامة على العلم والفلسفة ظناً من هذين الأميرين أنهما سبب الإلحاد المنتشر، وحرم على الوراقين بيع كتب غير كتب الفقه ، ولكن الأميرين أخطآ وأجرما ، فإن عامة الشعب فى عصرهما كانت جاهلة

وفقيرة ولم يكن العلم سبباً فى الانحطاط ، ولكن الانحطاط نشأ عن استئثار بعض الخواص بالقوة والمال وحبس النور عن الأغلبية المطلقة من الأمة ، ومثل هذا حدث فى دولة العثمانيين ، فسقطت بعد قوتها وجرت الشعوب التى كانت تحكمها معها إلى قاع الهاوية .

ولم يكن للدين دخل فى هذا الانحلال لأن العامل الذى يكون سبباً فى النهضة والحياة لا يكون سبباً فى السقوط والموت ، وقد انحلّت دولة بغداد كما انحلت إمبراطورية الرومان بأسباب سياسية وخارجية ومن أهمها ما أشرنا إليه من إدخال الجيوش المرتزقة فى عهد المأمون والمعتصم وهم جنود أتراك ليكونوا بذلك بمعزل عن نفوذ العرب والفرس . فإن هؤلاء الجنود البرابرة بالنسبة للعرب والإسلام ، وإن كانوا اعتنقوه وعاشوا فى كنفه ولم يقلوا إيماناً عن غيرهم من خدم الدولة الإسلامية - إلا أنهم أدخلوا لغاتهم وعاداتهم وتقاليدهم وأنظمتهم وهى فى جملتها غريبة عن المدنية الإسلامية ومخالفة لروح المدنية العربية ، فكانت النتيجة استمرار الاضمحلال وتمشّيه فى جسم الدولة العربية .

وقد بدأت الحروب الداخلية فى عهد المتوكل ولم يجىء عهد المقتدر إلا سقطت المدن والولايات ودب دبيب الخراب إلى الممالك الإسلامية ، وليس للدين دخل فى ذلك ، بل حدث فى دولة الإسلام

ما حدث فى مملكة شارلمان فى عهد خلفائه .

فقد نشأت فى بلاد الإسلام ولايات جديدة قوية واستبدت الجنود الأتراك بالرعايا كما استبد الجنود البريتوريان بشعوب الإمبراطورية الرومانية وكما استبد الجنود الأنكشارية بالدولة العثمانية .

وليس فى الحقيقة للدين دخل فى معظم الفتوح التى حدثت فى الشرق فى أزمان مختلفة، فقد كان الموغول الذين فتحوا الشرق الأوسط وخربوه وثنيين ، كما أن غزاة مسلمين فتحوا الهند مرات عدة ، وكان إسكندر الأعظم وثنياً عندما فتح الشرق وفيه المتدينون فى إفريقيا وآسيا ، ولم تقل فتوحات السلطان محمود الغزنوى فى الهند عن فتوحات الإسكندر ، فقد أنشأ دولة على أساس ولاية خراسان ومملكة بخارى وفتح الهند اثنى عشرة مرة.

فليس إذن للدين دخل فى سقوط الدولة العربية ، كما أن العقائد كلها لا تؤثر فى حياة الأمم وفتوحها ، وانتصار الممالك وانخذالها راجعان إلى أسباب سياسية واجتماعية وقومية واقتصادية مستقلة تمام الاستقلال عن المعتقدات .

نظام الحكم فى الممالك الإسلامية :

ولعل نظام الحكم فى الممالك الإسلامية هو الذى سبّب

انحطاطها ، فإن نظام الشورى الذى أراده الشارع - وهو نظام ديمقراطى - مازال يتحول ويضمحلّ بفعل الظلم والاستبداد وتواطؤ العلماء مع الأمراء واستبقاء الشعب فى الجهل والفقر - حتى صارت الدول الإسلامية إلى الخراب والاضمحلال !

وليس الإسلام فى جوهره إلا قانوناً ، وكل قانون يصلح بالملك العادل ويفسد بالملك الظالم ، ولا عبرة فى حكم الأمم بالقوانين وحدها ، بل العبرة أيضا بالرجال الذين يطبقونها وينفذونها ، فإن القانون العادل ينقلب وبالاً وأداة للظلم فى أيدى الحاكم الظالم ، والقانون الردىء قد ينقلب خيراً وأداة للعدل فى أيدى الحاكم العادل .

وهذا الشرق تراه يعلو ويرتفع إذا حكمه رجال فضلاء ، ويسقط ويندحر إذا حكمه رجال ظالمون . وقد وضحت تلك الحقيقة لرجال الإصلاح من المسلمين أنفسهم فقال جمال الدين : « يصلح الشرق بمستبد عادل» ، وهو يريد مستبداً محباً للخير ، لأن اقتران الاستبداد بالعدل محال ومخالف للمنطق ، ولكن اقتران الاستبداد بحب الخير ممكن .

فقد كان محمد على باشا مستبداً محباً للخير ، وقد نجح فى عمله وظهرت قوته فى خير الدولة التى أسسها ، ولم يدب الفساد

إلى مؤسساتها إلا بعد أن تغيرت الخطة التى اختطها للإصلاح والتقدم على أيدى غيره سواء من جهة المالية أو من جهة الحربية أو سياسة التعليم ، وربما تغافلت عنه أوربا ظناً فى أنه قد يستخدم آلة لإضعاف الدولة العثمانية فيكون إضعافها على أيد شرقية خيراً من أن يكون على أيدى أوربا ، فيكون الغرم على غيرها والغنم لها ، وهى تنال غايتها مع اقتصاد فى مالها ورجالها .

وهذا دأب أوربا المستعمرة في محاربة الشرق الغافل ، وإن هى لم تظهر السلاح والحرب ، استعملت الأسلحة الخفية كالدسائس والتحريض والاستغواء لإفقار الشرق وهلاك أهله .

سياسة أوربا نحو مصر منذ إنشاء قناة السويس :

ولا ريب فى أن سياسة أوربا تغيرت نحو مصر منذ إنشاء قناة السويس ، فإن وادى النيل أخذ شكلاً آخر وصار له شأن غير الذى كان له قبل فتح القناة .

صحيح أن إنجلترا كانت تحاول وضع اليد على مصر منذ احتلها الفرنسيون وحاربت بونابرت وهزمت أسطوله فى أبو قير ، وحاربت المصريين فى رشيد واحتلتها وأخرجت منها قهراً ، ولكن هذه كانت محاولات بدائية ولم تعزم عزماً أكيداً إلا بعد أن فتحت قناة السويس وبدأت فعلاً حوالي تلك المدة بإرسال رواد من

السائحين أمثال كنجلاك الذى كتب كتاب « من الشرق » وتمنى فى خطبة طويلة يصف بها زيارة أبى الهول أن يأتى الرجل الإنجليزى ويضع قدميه فى أرض النيل ، وقبله أو بعده بقليل زارها لين بول وألف فى أخلاق المصريين وآدابهم وعقيدتهم (وعاداتهم) كتاباً ضخما ، ومنذ ذلك الحين لم تنقطع رجل هؤلاء المستشرقين الرواد إلى أن نالوا بغيتهم واحتلوا البلاد ، بل إن أستاذاً للغات الشرقية اسمه إدوارد بالمر قد قام فعلا فى أثناء حرب سنة ١٨٨٢ بأفعال التجسس والخيانة ، فإنه قبل مأمورية سرية لرشوة العرب شرقى القنال ، وقد نشرت مكاتيبه واعترفاته بعد موته فظهر منها أنه تسلم هذه المأمورية من لورد نورثبروك نفسه وسافر إلى الإسكندرية قبيل ضربها بالقنابل وتخفّى فى زى عربى وسافر من يافا إلى الصحراء وقابل مشايخ القبائل واستمر يعمل من ١٤ يونيو سنة ١٨٨٢ تارة متخفيا وطوراً فى البوارج البريطانية واشترك فى الاستيلاء على مدينة السويس فى ٤ أغسطس ، وقد نهبوا من مال المحافظ بها خمسين ألف جنيه ، والقبائل التى كان يقصدها هى الحيوات والحويطات ، وشاركه فى العمل الضابطان چيل وشارنجتون ، وكانت غايتهم الظاهرة شراء الجمال ومأموريتهم السرية قطع أسلاك التلغراف بين مصر وسوريا ، والعربى الذى

ساعدهم حقيقة هو سعود الطحاوى من الصالحية [١] ومحمد البغلى من وادى الطميلات ، فإن رجال هذه القبائل وهم يصحبون الثلاثة إلى مأموريتهم اشتموا رائحة الذهب فهاجموهم وقتلوهم وذهبت حياة العالم المستشرق (إدوارد پالمر) هباءً وأنكرت الحكومة الإنجليزية كل علاقة لها به لأن مأموريته سرية .

ويعد اعتراف پالمر واعتراف جيل - وقد نشرا باللغة الإنجليزية - دليلاً على رشوة العرب فى حروب الاحتلال .

أما سعود الطحاوى فكان رجلاً نبيهاً وقد تجسّس للإنجليز على معسكر عرابى لأنه كان يخدم هو العرابيين بمثابة كشافة ، وقبض ثمنا لخيانته ٥٠٠٠ كورونة نمساوى ، واستمرت خيانته من كفر الدوار إلى التل الكبير .

وسلوكه لا يستغرب لأنه كان من محاسيب دلسبس وعاشر الفرنسويين الذين يفسدون أخلاق البدو ولأن معظم البدو الأعراب لا خلاق لهم ويبيعون ذممهم بالمال ، وقد اعترف الرجل بأعماله لمستر بلنت مفاخراً ، لأنه لم يكن يعرف شخصه (ص ٢١٢ تاريخ الاحتلال)، وادّعى أن المصريين والأتراك والفرنج عند البدو لافرق

---

(١) انظر مقال المؤلف « حقيقة موقعة التل الكبير من رواية شاعد عيان » فى كتابه « مباحث فى التاريخ » ، المرجع السابق ، ص ٣٢٠ -٣٢٤.

بينهم وأخذ مالهم حلال وخيانتهم لا عقاب عليها وإن كان آخاهم وأكل معهم العيش والملح كما فعلوا مع بالمر الذى لقى حتفه لاحباً فى خدمة وطنه كبعضهم ولكن طمعاً فى المال الذى وعده به رجال الجيش والأسطول .

مقاصد علماء المشرقيات :

وهذه النبذة تريك كيف أن علماء المشرقيات ومحبى الشرق والمغرمين باللغة العربية **والذين يرتدون عن أديانهم وينتحلون دين الإسلام ، لا يفعلون ذلك حبا بنا ولا إعجابا بديننا ولكن وراء ذلك لهم مقاصد سياسية يرمون بها إلى القضاء على حريتنا** ، إذ لا يعقل أن هؤلاء السادة الإنجليز الذين يتلقون العلم فى أكسفورد وكمبردج ويدرسون الأديان ويتسلسلون من آباء وأجداد مؤمنين بدينهم ، يتنازلون عن عقائدهم وتقاليدهم لمجرد الحق والهداية ، ولا سيما ونحن لسنا فى زمن المعجزات ولسنا فى زمن دعاية ، ولم يصلهم بشير ولا نذير ، وقراءة الكتب لا تكفى ، ولم يروا من قوة الإسلام أو عظمة الأمم الإسلامية ما ينتزعهم من صدر ديانتهم إلى دين غيرهم .

ومن ذا الذى يفضل ترك أكسفورد وستريت وشانزليزيه وويلهمستراس ليعيش فى صحراء مجدبة أو مدينة متخربة حباً بدين جديد ليس دين آبائه وأجداده ؟

أرأيت إلى هذا الأستاذ إدوارد پالمر الذى جاء إلى العرب وآخاهم وآكلهم وادعى فى كتبه أنه سلب لبهم برواية الشعر العربى من محفوظاته وهو الذى ألف كتاباً عن هارون الرشيد يقول فى مقدمته ص ١٤ طبع ٨٢ ١٨ لندن:

«إن القرآن ليس من وضع محمد ولا من ابتكاره، ولكنه مجموعة الأساطير والحكم الشائعة فى الصحراء على أفواه العرب، وقد صاغها النبى فى أسلوب فصيح يروق للعرب ، وقد زيّنه وجمّله بروح الحماسة ، ولو أنه كان تأليف محمد وحاملاً طابع شخصه وأسلوبه ، إذن لما كان من حظه هذا الرواج والقبول لدى الأمم الناطقة بالعربية واعتباره بين ظهرانيها من معجزات البلاغة».

فكيف إذن يأمن العرب أو غيرهم من الشرقيين إلى الغربيين الذين يندسون بينهم باسم الدين الإسلامى أو غيره ، ويدعون الدخول فى حظيرته مطيعين مختارين ؟

ألا إن أديانهم وشعوبهم أحوج إليهم وهم بهذا الإخلاص وهذه الحميّة .

ويستفاد من خبر پالمر حال البدو الذين كانوا نازلين بقرب مصر ، فإنهم لم يراعوا إلاّ ولا ذمة ولم يحترموا جواراً ولا إخاء فى العقيدة واللغة ، ولم يحترموا كرامة الأمانة التى وضعها المصريون بين أيديهم ، بل قادوا العدو إلى قلب البلاد فرحين

ببضعة آلاف من الكورونات . بئس ماكسبت أيديهم !

وإن كنا نعيب علي الأفراد هذه الأعمال وقد أتوها بجهالة أو تحت تأثير الطمع وهم فقراء مهما بلغت ثروتهم، فكيف نفسّر أعمال غيرهم من الكبراء الذين فرطوا فى حقوق العرب من قبل الحرب العظمى وبعدها وضيعوها وادعوا أنهم خدعوا بالوعود وأنهم كانوا يحسنون الظن بزيد وبكر ، وهل أقنعنا ما ذاع منذ حين من أن الكولونيل لورنس غضب على حكومته ورد إليها أو سمته لأنها لم تف مع العرب ؟ ومن يدرينا أن هذا ليس خبراً مصطنعاً ، وإن كان صحيحا أفيبعد أن يكون تمثيلا حاذقا لفصل من كوميديا الاحتلال فى الشرق ليقال إن رجلاً غضب للغدر ويرأ ذمته أمام العالم ؟ (١)

وأنت ترى هؤلاء الأجانب إذا عجزوا عن استخدام الحرب ، لجأوا إلى الرجال لا سيما ممن يعرفون الشرق ولغاته وياحبذا لو كانوا شرقيين فيستعملونهم ضد بعضهم بعضاً ، وأحد هؤلاء الشرقيين يخدم مصلحة الأجنبى سواء طمعاً فى المال أو لخصومة يتخيلها لسبب دينى أو جنسى أو تعصباً منه لجنسه ، وهو فى الحقيقة لا يعدم الأسباب إذا أراد إقناع نفسه بها .

---

(١) عن لورانس ودوره مع العرب فى الحرب العالمية الأولى ، انظر كتاب المؤلف « مباحث فى التاريخ » ، ص ٤٢٢ - ص ٤٥٠ ، عالم الكتب ، القاهرة ، سنة ٢٠٠١ م .

وسائل المستعمرين فى الشرق :

لقد لجأ المستعمرون إلى شتى الوسائل فى الشرق ليقتلوا روحه ويدخلوا اليأس على أبنائه ، فقد حاربوا أهل الأخلاق الفاضلة أو الذين لديهم بقية باقية منها بإقصائهم والتضييق عليهم ، ثم حاربوا أهل النبوغ والمواهب ممن يحتفظون بإبائهم وكرامتهم وشممهم ، ولهم فى محاربتهم طرق ووسائل .

كانوا فى بداية أمرهم يستدرجون النابغين إذا قبلوا الدخول فى حظيرة الولاء وهم يقصدون بذلك إلى الخضوع لحكم الأجنبى وعدم المعارضة ، ثم أخذوا يضطهدون الأكفاء تمثيلاً بهم لئلا يقتدى بهم سواهم فى المعارضة ، ثم أعدوا قوائم سوداء تشمل أسماء كل الرجال الذين يخلصون لأوطانهم لإقصائهم إلى الأبد عن مواطن العمل النافع ، وأوعزوا إلى أتباعهم وخدّامهم فى ناحيات الحياة القومية أن يضطهدوهم ويطاردوهم وينشروا ضدهم دعاية ضارة ، فإن كانوا زعماء اتهموهم بالدجل والاحتيال حتى يشككوا الشعوب فى أمانتهم ، والشعوب الشرقية لاتزال فتية سليمة القلب سريعة التصديق ، وإن كانوا علماء طعنوا فى علمهم ومبادئهم ، ولهم للقيام بهذه الدعاية الخطيرة رجال من الشرقيين أنفسهم يحاربون أبناء جلدتهم بتلك الأسلحة المسمومة وسواها .

وقد ساعد على نجاح تلك الوسائل حدوث التطورات

الاقتصادية فى أثناء الحرب الكبرى وبعدها ، فإن تلك الحرب نقلت مقادير مهولة من الثروة المادية التى هى مقياس المطالب الدنيوية إلى أيدى الطبقات الجاهلة والفقيرة ، فصار القصاب والقماش والوراق وصاحب المطعم والفندق ومدير مخزن الأحذية أغنى من أنبغ طبيب أو أحذق مهندس ، لأن هذين أو غيرهما من أرباب الحرف الحرة - إنما ينفق من رأسماله فى سبيل كسب قوته ، ورأسماله هنا هو حياته وعقله ودمه ودماغه وقلبه سواء أكان عمله فى المستشفى أو فى العيادة أو فى بيت المريض، وسواءً أكان عمله الجراحة أو الطبابة أو هندسة الطرق أو رى الأراضى أو بناء البيوت ، فإنه يدفع نور عينه وقوة أعصابه ونخاع مخه ليأكل ويشرب ويعول عيلته وأهل داره .

ولكن ذلك الفبريقى أو القصاب أو صاحب مخزن الأقمصة أو تاجر السيارات لا يعمل عملاً ذهنياً ولا يخاطر بعقله وحياته ، بل هو وسيط بين الصانع والشارى أو بين المجزر والطاعم ، وهو يقبض المال فى كل حال ولا غرم عليه ، فيغتنى ويسمن ويقتنى وسائل النعيم التى تحفظ حياته وتصون أهله وتضمن لأسرته التعليم والهناء والأمان من الفقر ، فى حين أن العامل العقلى (الطبيب والمهندس والمعلم والصحفى والمؤلف ... إلخ) يجرى وراء الحياة والموت يطارده ، وقبل أن يقبض عليه يرسل إليه كشافة

من الأمراض والعلل تجس نبضه وتهد من كيانه ليبطىء الخطى ويكون وصول الهلاك إليه أسهل !

التطور الاقتصادى :

لقد ذكرنا المهن الحرة التى يغنى نووها فى سبيل العمل الشريف وحمل الهم المضنى ، وذكرنا إزاءها بعض الأعمال المادية الجالبة للثروة وهى من أشرف الأعمال وأفضلها ، ولكن التطور الاقتصادى خلق أعمالاً مادية أخرى منحطة ونازلة فى ميزان الشرف وجعل أرباحها طائلة ، فأثرى أربابها أيضا وظهروا بالمال وملكوا ناصية الغنى المادى ولعبوا بالدنانير ، فى حين أن هؤلاء العلماء والنبهاء الذين ضحّوا بوقتهم ومالهم فى سبيل العلم ينظرون متعجبين إلى حدوث هذه الحالة الشاذة التى ستنتهى حتما بالقضاء على التعليم العالى فى الشرق ، لا لأن هذا الجيل سوف ينقرض بل لأنهم لايجدون عملاً ولا مصدر رزق ، فهم عاجزون عن تأسيس أسرة ، وإن أسسوها عجزوا عن تعليم أبنائهم كتعليمهم ، وإن قدروا فإنهم يمتنعون شفقة بالأولاد من البطالة وخوفاً عليهم من الوقوع فيما وقعوا هم فيه ، فتتحول تلك الوراثات الصالحة التى تحتوى على خميرة طيبة للشرق إلى الأعمال المادية المربحة أو تسير سيراً بطيئاً أو سريعا نحو الفناء .

المحافظة على النبوغ وحمايته :

فى حين أن أوربا تحافظ على النبوغ وتحميه ، وتوجد له المؤهلات والمحيط المظهر لفضائله، فتفتح أبواب الوصول فى وجوه الجميع وتضمن لأبنائها النجباء وسائل العيش السعيد وتحميهم من مزاحمة الأجانب وتعنى بتربية أولادهم وتدفع عنهم غوائل الضعف واليأس بما تحيطهم به دائما وأبداً من أسباب الإجلال والتكريم ، فتبقى النار المقدسة أبداً مشتعلة فى صدورهم وإن تطرق اليأس إلى قلوبهم شبراً أبعدته أنظمة الحياة الأوربية ميلاً ، فلا يبور العالم ولا ينقرض الأديب ولا ينزوى الطبيب ولايجوع الكاتب ولا ينتحر الأستاذ المربى لفقره أو خوفا من عجزه فى المستقبل عن تربية أولاده كما حدث فى الشرق .

وأنت ترى من هذا أن أعمال المستعمرين فى الشرق واسعة النطاق وأنها تناولت جميع أسباب الحياة ولم يغفلوا عن صغيرة ولا كبيرة ، وقد وجدوا معيناً من أبناء الشرق أنفسهم سواء أكانوا مدركين أم غير مدركين ، فهم يعينون من حيث يشعرون أو لا يشعرون على خراب بلادهم بأيديهم كما قضت أجيال لهم من قبل على مجد أجدادهم وآبائهم .

انحطاط الشرق :

هذا هو الشرق الإسلامى الذى كان مجمع الفضائل والذى كان مظهر الكمال والجمال ، قد انحط على أيدى أعدائه وأبنائه إلى هذا المستوى ، وأصابته تلك الطعنات التى أدنت أجل شعوبه ، وتفرقت كلمة أممه حتى أصبحت كل أمة منها أفراداً لا تربطهم رابطة قلبية ولا روحية ، وربما كان الشرقى فى نظر ابن جنسه ابن وطنه أو ابن دينه أعدى له وأخطر عليه من الأجنبى .

تحرك الشرق :

غير أن هذا الشرق هو الآن يتحرك ، وقد بدأ أبناؤه بإدراك تلك الحقائق أو بعضها وقاموا يفكرون فى تشخيص أدوائه ووسائل علاجه .

إن القلوب حقاً ممتلئة يأساً والنفوس مفعمة بالشك فى يقظته ، ولكن بعض اليأس مقدمة للرجاء والشك أول مرتبة من مراتب اليقين .

منشأة البكرى — **محمد لطفى جمعه**

٢٥ فبراير - ٣ مارس سنة ١٩٣١

الفهـرس

الصفحة

تقديم الأستاذ الدكتور إبراهيم عوض ٣

تقديم رابح لطفى جمعه ١٩

آيات قرآنية وأحاديث نبوية ٤٣

مقدمة المؤلف مصر وتحديات القرن الحادى والعشرين ... ٤٧

كيف السبيل لإحياء الشرق والإسلام ؟ ٥٥

- عقيدة القضاء والقدر والمفهوم الخاطىء لها وضرورة تحكيم العقل ٥٥
- انقلاب الآية ٥٧
- المشاكل التى تواجه المصلح الشرقـــى ، تأخـــر المسلمين ، صلة الدين بتقدم الأمم أو تأخرها ومقولة الشيخ محمدعبده ٥٩
- الشرق لم يترك دينه ونظرية القضاء والقدر ٦٨
- طرق الصوفية ٧١
- أسباب تأخر المسلمين ٧٢
- علماء الرسوم ٧٣
- تألب أوربا على الإسلام من أسباب تأخره ٧٦
- هل هناك أسباب أخرى غير مناوأة أوربا للإســـلام والمسلمين ؟ ٧٩

الصفحة

- هل تركت أوربا دينها ؟ ٨١
- خطبة لويد جورج ٨٤
- اتهام أوربا المسلمين بالتعصب وما ترتب على ذلك ٨٥
- أسباب ضعف المسلمين ٨٦
- التصوف وتأخر المسلمين ٨٧
- ليس لبحثنا طبيعة دينية ٨٨
- فكرة القضاء والقدر والعمل والجهاد وإعمـــال العقل فى الإسلام ٨٩
- لماذا يتمسك المسلمون بنظرية القضاء والقدر؟ ٩١
- تنافس ملوك المسلمين فيما بينهم ٩٢
- جمود علماء الرسوم وقفل باب الاجتهاد ٩٣
- الإسلام نظام محكم ٩٥
- إعانة علماء الرسوم للحكام المستبدّين ٩٦
- العلماء وتقويم الحكام ٩٨
- دعوى انتشار الإسلام بالقوة ١٠٠
- من أسباب ضعف المسلمين فقدانهم الحماســـة الإسلامية الأولى وعدم البذل والتضحية ١٠١
- أعداء المسلمين هم المسلمون أنفسهم ١٠٤

الصفحة

- طلائع جيوش المستعمرين ١٠٦
- اتهام المسلمين بالتعصب ١٠٧
- الاستعمار وأندونسيا ١١٠
- حروب أهل الملّة الواحدة ١١١
- الخشية من نهضة شمال إفريقيا وأندونسيا ١١٢
- رابطة الشعور بالألم ١١٣
- الجبن والهلع من أسباب ضعف المسلمين ١١٥
- الدين ليس معياراً للتقدم أو التأخر فى حياة الأمم ١١٦
- ماذا نريد من تعاليم الدين ؟ ١١٧
- عصر القوميات ١١٨
- الأخذ بما هو أصلح من المدنيات ١١٩
- اهتمام الباحثين فى شئون الشرق بالدين الإسلامى ١٢٠
- الشرق والاستعمار الأجنبى ١٢٢
- هجمة المغول على الشرق ١٢٤
- الحروب الداخلية فى الشرق ١٢٦
- ليس للدين دخل فى سقوط الإسلام ، الأسباب السياسية والاجتماعية لسقوط الدول الإسلامية ... ١٢٧

الصفحة

- آثار الحرب العالمية الأولى ١٣٠
- إبادة الاستعمار لبعض الأجناس ١٣٣
- الاستعمار والتعليم فى الهند ١٣٣
- محاربة الاستعمار اللغة العربية والتعليم فى مصر ١٣٤
- الدعوة إلى تأسيس جامعة مصرية ١٣٦
- مصادرة الاستعمار الصناعات الوطنية وسرقة آثار مصر الفرعونية ١٣٨
- إهمال المصريين ١٣٩
- الاستعمار ومحاربة اللغة العربية ١٤٠
- وحدة الثقافة بين أقطار الشرق العربى الإسلامى ... ١٤٤
- وجوب اصطباغ الثقافة بالصبغة العربية الشرقيـــة العصرية ١٤٦
- تطلع الشرق الإسلامى إلى مصر وزيادة أهميتهـــا بحفر قناة السويس ١٤٧
- الأزهر ١٤٩
- نهضة الوطنية المصرية وزعامة مصر ١٥٢
- مصر بعد الاستقلال ١٥٦
- ماذا يحدث بعد عشر أو عشرين سنة ؟ ١٥٦

الصفحة

- زعامة مصر للقارة الإفريقية ١٦٠
- التبشير فى إفريقيا وإبادة الهنود الحمر وسكـــان أستراليا الأصليين ١٦١
- العلاقة بين السود والمستعمر الأبيض ١٦٤
- الاستعمار فى شمال إفريقيا ١٦٥
- الجزائر وتونس ومراكش ١٦٦
- استيلاء إيطاليا على ليبيا ١٦٧
- مقاومة دول شمال إفريقيا للاستعمار الأجنبـــى ، الجزائر وتونس ١٦٨
- دور مصر فى النهوض بدول شمال إفريقيا ١٧١
- حاجة الشرق والإسلام والعرب إلى العلم والعمل ١٧٢
- حاجة الشرق إلى الزعماء المخلصين ١٧٢
- التمسك بالإسلام ١٧٣
- حوار الحضارات ، الحوار بين الشرق وأوروبا ١٧٤
- حديث أحد العلماء المجاهدين فى سبيـــل إنهاض الشرق ١٧٥
- الخوف من استيلاء الأجانب على جزيرة العرب ١٧٨
- تقريب الغرباء عن الوطن ١٨٢

الصفحة

- أهمية القومية ١٨٤
- شح أغنياء الشرق عن البذل فى سبيل قضيتهم ١٨٥
- العراق ١٨٦
- عصر اليقظة والنهضة وفكرة الوحدة القومية والوطنية ١٨٩
- أندونيسيا ١٩٠
- السياسى المحترف ١٩٢
- الصراحة فى الحق وخدمة الأمة ١٩٤
- اتهام الشيخ محمد عبده بممالأة الإنجليز ١٩٩
- اتساع دائرة التذمر فى مصر ٢٠٠
- الدين والأخلاق ٢٠٠
- الأمم وقوة الأخلاق ٢٠٤
- الإسلام فى إفريقيا ٢٠٩
- الفرق بين العرب فى صدر الإسلام والقبائل البربرية فى أوربا ٢٠٩
- المستعمرون المحدثون ٢١١
- سماحة الإسلام وأسباب الانحلال السياسى ٢١١
- نظام الحكم فى الممالك الإسلامية ٢١٤
- سياسة أوربا نحو مصر منذ إنشاء قناة السويس ٢١٦

الصفحة

- مقاصد علماء المشرقيات ٢١٩
- وسائل المستعمرين فى الشرق ٢٢٢
- التطور الاقتصادى والبطالة ٢٢٤
- المحافظة على النبوغ وحمايته ٢٢٥
- انحطاط الشرق ٢٢٦
- تحرك الشرق ٢٢٦
الفهرس ٢٢٧
مؤلفات محمد لطفى جمعه ٢٣٥
أولاً : المؤلفات المطبوعة ٢٣٥
ثانياً : مؤلفات تحت الطبع ٢٤٠

مؤلفات محمد لطفى جمعه

أولا : المؤلفات المطبوعة

١ – فى بيوت الناس (قصص) – نفد		١٩٠٤
٢ – فى وادى الهموم (رواية) – نفد	مطبعة النيل	١٩٠٥
٣ – تحرير مصر(سياسة – مترجم) – نفد	مطبعة النيل	١٩٠٦
٤ – محاضرات فى تاريخ المبادىء الاقتصادية والنظامات الأوروبية (اقتصاد ونظم الحكم) – نفد	مطبعة النيل	١٩١١
٥ – الحكمة المشرقية (يضم ثلاثة كتب هى : حكم فتاح حوتب وروضة الورد للشيرازى والتعليم الراقى للمرأة اليابانية)– ترجمة ودراسة – نفد		١٩١٢
٦ – حكم نابليون (مترجم) – نفد	مطبعة البيان	١٩١٢
٧ – ليالى الروح الحائر (أدب) – نفد	مكتبة التأليف	١٩١٢
٨ – الأمير «لميكاقللى» (ترجمة ودراسة) – نفد	مكتبة التأليف	١٩١٢
٩ – مقدمة قانون العقوبات ومبادىء العلوم الجنائية (قانون – مذكرات فى القانون الجنائى لطلاب السنة		

الثانية من قسم الحقوق بالجامعة المصرية) – نقد	مكتبة المؤيد	١٩١٧
١٠- تاريخ علم الاجتماع (اجتماع) – نقد		١٩١٩
١١- مائدة أفلاطون (دراسة فلسفية – مترجم)– نقد		١٩٢٠
١٢- الشهاب الراصد (الرد على كتاب فى «الشعر الجاهلى» لطه حسين) – نقد	مطبعة المقتطف	١٩٢٦
١٣ – التحقيق الجنائى Lecture on criminal investigations. Polis officer's Club, 22-7-1926.		
(قانون محاضرة باللغة الإنجليزية ألقيت بنادى ضباط البوليس)	نادى ضباط البوليس	١٩٢٦
١٤ – تاريخ فلاسفة الإسلام (فلسفة إسلامية)– طبعة أولى – نقد	مطبعة المعارف	
طبعة ثانية	عالم الكتب	١٩٩٩
١٥ – الشيخ محمد عبد السلام (سيرة متصوف مصرى) – نقد	مطبعة حليم	١٩٢٧

١٦ - حياة الشرق ، دوله وشعوبه وماضيه وحاضره (سياسة وتاريخ) - نفد — دار إحياء الكتب العربية ١٩٣٢

١٧ - سجل أشهر القضايا العالمية (قانون - عدد واحد) - نفد — مطبعة حجازى ١٩٣٤

١٨ - بين الأسد الإفريقى والنمر الإيطالى (سياسة - بحث تاريخى اجتماعى فى المشكلة الحبشية - الإيطالية) - نفد — مطبعة المعارف ١٩٣٥

سلسلة مسامـــرات الشعب

(روايات مترجمة) :

١٩ - الساحر الخالد - عدد ٤٠ ، مسامرات الشعب - نفد

٢٠ - الانتقام الهائل - عدد ٤١ ، مسامرات الشعب - نفد

٢١- الكنز الدفين لكونان دويل - عدد ٤٧، مسامرات الشعب ، نفد

٢٢ - الجسد والروح - عدد ٤٨ ، مسامرات الشعب - نفد .

٢٣ - ثورة الإسلام وبطل الأنبياء
أبو القاسم محمد بن عبد الله
(سيرة الرسول ، الجـــزء
الأول) - نقد مطبعة الحلبى ١٩٤٠
٢٤- ثورة الإسلام وبطل الأنبياء
أبو القاسم محمد بن عبد الله
(الجزء الأول مضافاً مطبعة النهضة
إليه باقى الأجزاء كاملة) - نقد المصرية ١٩٥٩
٢٥ - نظرات عصرية فى القرآن الكريم مكتبة عالم
(تفسير) الكتب بالقاهرة ١٩٩١
٢٦ - مخطوطات مسرحيات محمد لطفى
جمعه - الجزء الأول - المسرحيات مكتبة
المؤلفة (قلب المرأة - خضَّرْ أرضك- زهراء
فى سبيل الهوى - يقظة الضمير - الشرق
الأم المتعبة) القاهرة ١٩٩٧
٢٧ - قطرة من مداد لأعلام المتعاصرين عالم الكتب
والأنداد - تراجم مصرية وأجنبية بالقاهرة ١٩٩٨
٢٨ - نحو أدب روائى عالمى جديد ، عولس
ليجمس جويس (أدب ونقد) عالم الكتب ١٩٩٨
٢٩ - مع الكتب ، فى سبيل المعرفة ، تاريخ
تكوين عقل (أدب ونقد) عالم الكتب ١٩٩٩

٣٠ - الفلاكة والبوهيمية فى الأدب القديم والحديث (أدب) عالم الكتب ١٩٩٩

٣١- مباحث فى الفولكلور (أدب ومأثورات شعبية) ، طبعة أولى عالم الكتب ١٩٩٩
طبعة ثانية ، سلسلة مكتبة الدراسات الشعبية رقم ٣٤ الهيئة العامة لقصور الثقافة ١٩٩٩

٣٢- الأيام المبرورة فى البقاع المقدسة رحلة الحج والزيارة النبوية فى عهد الملك عبد العزيز آل سعود (أدب رحلات) عالم الكتب ١٩٩٩

٣٣- تذكار الصبا ، ذكرى ١٩مارس (جزآن- مذكرات وسيرة فى الرحلة والسياسة والأدب والفنون) عالم الكتب ١٩٩٩

٣٤- الأسلوب والخطابة (أدب) عالم الكتب ١٩٩٩

٣٥- شاهد على العصر ، مذكرات محمد لطفى جمعه ، الجزء الأول (١٨٨٦ ١٩٣٧) الهيئة المصرية العامة للكتاب ٢٠٠٠
سلسلة تاريخ المصريين ، رقم ١٨٣

٣٦ - فى الأدب والنقد (أدب ونقد) عالم الكتب ٢٠٠٠

٣٧ - مباحث فى التاريخ (تاريخ) عالم الكتب ٢٠٠١

٣٨- قضايا ومشكلات اجتماعية فى مصر
المعاصرة (اجتماع) عالم الكتب ٢٠٠١
٣٩ - شاهد على العصر ، مذكرات محمـــد
لطفى جمعه ، الجزء الثانى ، المجلـد
الأول (١٩٣٨ - ١٩٤٥) عالم الكتب ٢٠٠٢
٤٠- شاهد على العصر ، مذكرات محمد
لطفى جمعه ، الجزء الثانى ، المجلد
الثانى (١٩٤٦ - ١٩٥٣) عالم الكتب ٢٠٠٢
٤١ - كيف السبيل لإحياء الشرق والإسلام عالم الكتب ٢٠٠٢
٤٢ - رواية عولس لجيمس جويس ، ترجمة
حوالى ثلث الرواية. عالم الكتب ٢٠٠٢
- حوار المفكرين ، رسائل أعلام العصر
إلى محمد لطفى جمعه خلال نصف
قرن (١٩٠٤ - ١٩٥٣) عالم الكتب ٢٠٠٠

ثانياً : مؤلفات تحت الطبع :

- خطرات أفكار
- عايدة (رواية)
- مختارة (رواية)
- الفتى العادل (رواية)